ابراهيم الكوني



أخبار الطوفان الثاني

ابراهيم الكوني

أخبار الطوفان الثاني

الرواية الثالثة من خماسية «الخسوف»

أبو ذر الغفاري للنشر

«أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء . كل ما فى الأرض يموت ولكن أقيم عهدى معك فتدخل الفلك أنت وبنوك» .

العهد القديم
«سفر التكوين»

«أنا على استعداد لأن أتنازل عن : الجيش ، الامبراطورية ، كليوباترا ، مقابل أن تدلونى على منابع النيل» .

يوليوس قيصر
فى حوار مع أحد الكهنة المصريين

1 ـ النّبع

(1)

مع اختلال ميزان النهار وانحراف الشمس نحو الغرب انحسرت ظلال النخلة وتراجعت إلى الجهة المعاكسة مؤذنة بحلول العشية . وجد الشيخ نفسه ينام تحت الشعاعات الحارقة والعرق يبلل لثامه وثوبه وأطرافه فرفع رأسه وزحف خلف الظلال الهاربة أمام هجوم أشعة الشمس من الغرب .

عاد يستلقي في رحاب الظل ولكن النوم هجر جفنيه ورفض أن يعود برغم الوضع المغري الذي هيأه الشيخ كي يمهد له الطريق ويستدرجه من جديد .

استمر راقداً على ظهره ، سابلاً جفنيه ، حابساً أنفاسه ، صالباً يديه على صدره ، سابحاً بخياله فى الفضاء ، محاذراً أن يأتي بأبسط حركة قد تزعج حضور هذا الضيف المكابر . ولكن كل الحيل فشلت فى التأثير على الزائر وإجباره على العودة إلى الجفنين .

لعن الشيخ ـ في سرّه ـ الشمس وحمّلها مسئولية طرد ضيفه ذو المزاج المتقلب . أصبح من العسير ـ فى السنوات الأخيرة ـ أن يتمتع بعودة النوم إذا حدث وانفلت من بين جفنيه مهما ابتكر من حيل لاستدراجه ومهما رتب من تدابير لاغرائه فيحل محله ضيف آخر ثقيل الدم عبوس الوجه كئيب الحضور يدعونه: الأرق! حتى اضطر الشيخ أن يشتكي لمهمدوا في إحدى جلسات المساء من زيارات هذا الضيف الثقيل المتكررة فقال العراف وهو يكدس الجمر بالمهماز

ليحضر مكاناً مناسباً لوعاء الشاي : «هذا من علامات الشيخوخة يا شيخنا ! إذا هجر النوم جفنيك وأرسل الأرق إلى عينيك ليحل محله فأعلم أن الشيخوخة تنوي أن تقتحم عليك خلوتك دون استئذان ، فما عليك إلا أن تعد لها الاستقبال اللائق وأحذر أن تأخذك على حين غرّة !» . أعقب ذلك بضحكة قصيرة وأضاف : «ثمة علامة أخرى تشير إلى حلول الشيخوخة : البـرودة لا تلبث أن تغزو الكفين والقدمين . هل يحدث أن تغمر البرودة قدميك دون مناسبة ؟ أقصد في ليالي الصيف مثلاً ؟» هز رأسه بالنفي فطمأنه مهمدو وهو يكشف عن أسنان متآكلة صفراء بابتسامته العريضة : «أحمد الله إذن أن الشيخوخة تقبل نحوك برجل واحدة : الأرق رجلها اليمنى وبرودة الأطراف رجلها الثانية» .

ضحك مهمدو وحده ، في حين اكتفى الشيخ بابتسامة باهتة مجاملة للعراف وتشجيعاً له على دعابته . انشغل لحظتها بالتفكير فيما قاله مهمدو . إذا كان الأرق من علامات الشيخوخة فلا شك أنها تطرق أبوابه الآن ، ولكن الحمد لله أنه لا يعاني من هجوم البرد في القدمين واليدين على الأقل !

ولكن كيف لم يخطر بباله قبل الآن أن يفكر بإعداد العدة لاستقبال الشيخوخة؟

وجد نفسه يوجه لمهمدو السؤال : «متى شعرت لأول مرة أن الشيخوخة قد ضيقت عليك الخناق؟» . ضحك العرّاف وتناول من كأس الشاي رشفة ، تذوقها في فمه لحظة كي يختبر نسبة السكر وقال بمزاج رائق : «هاجمتني الأزمة لأول مرة على مشارف الأربعين» . صمت فجأة والتفت نحو الشيخ وتساءل : «هل تصدق أني اعتبر تلك الأزمة أقوى وأعنف من الأزمة التالية التي هاجمتني في السبعين؟» . غادر المرح وجهه وغمرته سحابة خفيفة من الحزن . قال : «كرهت المجتمع وركنت إلى العزلة فقامت بيني وبينها علاقة عشق حتى قال عني الناس أني أعبد الانطواء ولا أطيق معاشرة البشر وأتهموني بغرابة الأطوار ومضى البعض فنعتني بخفة العقل وبلغ الأمر ببعض المتطرفين فوصفوني بالجنون . ولكني لم أتنازل عن

وحدتي . فساعدني الانطواء على اكتشاف نفسي وتأمل ما يدور في داخلي فتنفست الصعداء قليلاً وأحسست ببعض العزاء وحققت نجاحاً باهراً في الهرب من شبح الإنتحار. أما الأمر مع السبعين فقد اختلف. قابلتها بالرضى والطاعة والتسليم بالمكتوب بدل التمرّد وحرارة البحث والتململ في الأربعين . ثم فقدت بعدها الإحساس بالزمن . لأني أرى أن كل شروق شمس بعد هذا العمر ، أقصد بعد السبعين ، هو هبة من السماء . هدية نفيسة نتلقاها ، نحن المعمرين ، من يدي اللّه مباشرة . وشعورنا بأنه كل مطلع شمس هو منّة من الخالق ننتزعها في غفلة من الموت يمنح حياتنا طعماً خاصّاً يجعلنا نعرف كيف نتمتع باللحظة الواحدة . آه ما أسرع ما تمر الحياة يا شيخ غوما؟» . رفع رأسه نحو الأفق وراقب المغيب وهو يخط لوحة في الفضاء وأضاف بحسرة : «إنها غمضة عين! الحياة غمضة عين عجيبة!» . وزّع الشاي بين الكأسين وتمتم كأنه يخاطب نفسه : «من يدري . ربما يكمن سرّها في أنها تعادل رمشة العين » .

قدَّم له الكأس أصلع من الرغوة فشعر الشيخ غوما بالضيق ، ولكنه أحجم عن إبداء الملاحظة وبلغ احتجاجه احتراماً لصمت العجوز الذي كان يغالب في تلك اللحظة الشعور بقصر عمر الحياة واقتراب العدم .

يذكر غوما الآن أنه سكت يومها طويلاً حتى أن قداسة الموقف والتفكير في الموت أنساه التعبير عن إحتجاجه إزاء كأس الشاي الذي فشل العراف في إتقان أعداده .

الكآبة التي أفسدت مزاج العجوز ونغّصت جلستهما جعلت الشيخ غوما يندم على إلقاء سؤاله.

يئس من عودة النوم فنهض وجلس وهو يمسح حبات الرمل العالقة بلثامه وثوبه . راقب قرص الشمس وهو ينحني نحو الغرب ويتوارى خلف قمة نخلة عالية . مطاردة الظل لعبة الشمس المفضلة . ما أن يغفو ويداعب النعاس جِفنيه حتى تمد الشمس المشاكسة يدها وتنزع عنه غطاء الظل وتبدأ توخزه بمهمازها

الناري حتى يهرب النوم ويستيقظ من غفوته اللذيذة . يزحف وراء الظل ويحاول أن يقتنص النعاس من جديد ولكن هيهات ! يظل راقداً على ظهره ، كاتماً حتى الأنفاس متسولاً ومتوسلاً سلطان النوم ولكنه يرفض فى عناد ، حتى أصبحت هذه الطقوس تقليدية في السنوات الأخيرة .

أنصت لحفيف الريح وهو يداعب إعراف النخيل فتنطق الأشجار بلغة سماوية غامضة . نهض وقصد عين الكرمة بهدف الوضوء .

أشار مستوى الشمس إلى حلول موعد صلاة العصر .

* * *

الشيخ يأوي الآن إلى النخلتين التوأماتين القبليتين المتقاطعتين ويقضي الظهيرة تحت أنقاض أم النخيل التي تستند برأسها المقطوع إلى النخلتين فتلفه هاتان النخلتان بالرفق والحنان ، حتى أن إحتضان النخلة الشهيدة يبدو للمشاهد ، عن بعد، غريباً، حزيناً، مثيراً للشفقة خاصة بالنسبة لأهل الصحراء الذين عودتهم حياتهم القاسية في البريّة ألّا يكشفوا عن مشاعرهم الإيجابية معتبرين ذلك نوع من الضعف الذي لا يليق بالرجال النبلاء! ويتندر أهل الواحة عليهم فيقولون أن الخجل يمنعهم من الكشف عن مشاعرهم الإنسانية فيسارعوا لاخفائها تحت تلك الأقنعة المهيبة التي يلفون بها وجوههم ورؤوسهم ، وهم في ذلك مثلهم مثل النعامة التي تدس رأسها في الرملة معتقدة أنها اختفت عن الأنظار في حين أن مؤخرتها تظل منصوبة في العراء ! ويمضي أهل الواحة في تعليقاتهم فيرددون : «يا لهم من بلهاء هؤلاء البدو ! يظنون أنهم أفلحوا في اخفاء ما يجول في الخاطر بمجرد أن يربطوا رؤوسهم ببضعة أمتار من الكتان في حين أنهم ينسون دور العيون التي لا تخفى عليها خافية وتفضح كل شيء . عليهم أن يخفوا عيونهم قبل كل شيء إذا أرادوا أن ينجحوا في ستر مشاعرهم!» ورددوا كثيراً تلك الأسطورة القديمة التي تؤيد زعمهم في كون الخجل الباعث الأول على التزمل باللثام وتقول أنهم هزموا في إحدى المعارك لصد غزاة أشدّاء فخجلوا من ملاقاة

نسائهم بعد الهزيمة البشعة فدثروا رؤوسهم ووجوههم بقطع القماش فأصبحت العمامة تقليداً منذ ذلك اليوم .

ولم يفت الأهالي أن يستثنوا الشيخ غوما من حكمهم الذي أصدروه من حق أهل الصحراء فقالوا : «الشيخ شيء آخر . يتمتع بقلب رقيق برغم صرامته . يرفق بالحيوان ويحنو على الأشجار . ينصر الضعيف ويقف في وجه البطش . يحب الأرض ولا يحتقر الزراعة والمزارعين مثل هؤلاء الأجلاف . تصرفاته تجعله لا يمت إلى عالم هؤلاء المكابرين بصلة!» . يتضاحك الحاضرون ويستطرد المتحدث : «يجمع حكماء الواحة أن الشيخ غوما نسيج وحده من البشر . يجزمون أنه الوحيد الذي يخفي وراء قناعه أشياء غير الخجل من الهزيمة والوقاحة في احتقار المزارعين مثل بقية أهل الصحراء . يخفي أشياء تخفى حتى على الحكماء وأهل المعرفة والعلم فيؤكد الخبراء في التعامل مع الدنيا الآخرة أن . . .» هنا يلتفت المتحدث يمنة ويسرة ويخفض صوته ويهمس في أذن أقرب جليس : «. . . أن صلته بمعشر الجن وثيقة!» ثم يشير من طرف خفي إلى آثار الرماد المنتشرة في العراء الذي كانت تتخذه القبيلة مقرّاً لها ويضيف محاولاً أن يضفي على نبراته الغموض الذي تعوّد الأهالي أن يصبغوا به لغتهم عندما يتحدثون عن عالم ما وراء الطبيعة خاصة عندما يتعلق الأمر بالجن : «. . . إنه من معشر هؤلاء . هذا أكيد . وما علاقته بمهمدو إلّا دليل على ذلك» . يغرق البعض في الضحك ، ويلتزم الآخرون الصمت لأن الأغلبية من الحاضرين لا توافق، ربما، المتحدث رأيه وإن آمنت بأن الرماد الذي خلفته القبيلة عند حرق الأكواخ قبل هجرتها منذ شهور قد تحوّل إلى مستوطنة يسيطر عليها العفاريت بالليل : يتنابزون بالألقاب البذيئة ويتدافعون يطارد بعضهم بعضاً بالسكاكين التي تلمع تحت ضوء القمر ، ويغنون - في بعض الأحيان - ويرقصون ويقيمون الأفراح . وأصبح الأهالي يروضون أنفسهم الآن على التآخي معهم ومراعاة تقاليد حسن الجوار خاصة وأنهم لم يحدث حتى الآن أن أصابوا أنساً واحداً من أهل الواحة بأذى . فحاولوا أن يعودوا أنفسهم بالحياة معهم بدل طردهم بالتسابيح ومحاربتهم بالآيات القرآنية !

بل أن أهل الواحة اكتشفوا ميزات في معشر الجن افتقدوها في معشر الأنس ! وتروي قصص كثيرة تمجد هذه الميزات منها قصة ذلك الفلّاح الطماع الذي وجدوه مخموراً في الحقل ، غارقاً في القيء ، غائباً عن الوعي فأخذوه إلى المستوطنة ، واستضافوه في بيوتهم فوجد نفسه عندما استيقظ وعاد له الوعي نائماً في فراش وثير لم يحلم بمثله من قبل تحيط به الوسائد الناعمة والبسط العجمية الفخمة التي تغوص فيها أقدام الجواري الحسناوات الغاديات الرائحات في ردهات القصر ذو الجدران المزينة بزخارف ثرية مطعمة بالذهب والفضة ونقوش دقيقة مطرزة بقطع الجواهر التي تتلامع وتتلألأ تحت أضواء أسطورية تنبعث من كوة في السقف .

ويروي الفلاح أن جارية حسناء تقطر الدماء من وجنتيها القرمزيتين سارعت إليه بمجرد أن صحا من غفوته وفتح جفنيه وجاءت بطست ذهبي اللون وطفقت تغسل رجليه القذرتين الملوثتين بالروث والطين وهي تبتسم إبتسامه رقيقة ساحرة . لم يصدق في البداية ما يرى ولولا قدماه الملوثتان بالطين وروث الحمير والماشية لما صدق أبداً أن يكون هذا المخلوق المشقق القدمين واليدين الذي يطير رأسه الصداع هو نفسه الذي يرقد الآن في الجنة بلباسه الوسخ وجسمه الذي تعلوه طبقة من العفن فاستغرب أن يلقي به الله في رحاب الجنة دون أن يقدم في مقابل ذلك عملاً صالحاً يذكر . ولكنه ما لبث أن طمأن نفسه قائلاً أن رحمته واسعة ويصطفي من عباده من يشاء كي يغدق عليهم نعمته كما يؤكد أغلب الفقهاء وعلماء الدين .

وفجأة وجد يده تمتد دون مقدمات إلى صدر الحسناء وتتحسس نهديها النافرين بحركة وقحة دهش لها هو نفسه فيما بعد . ويبدو أن جذوة اللاقبي في رأسه لم تنطفيء بعد فدفعته إلى القيام بهذه الحركة التي بدت طبيعية ولكن الصبية الفاتنة انسلت من بين يديه برقة دون أن تفارق الإبتسامة الشفافة شفتيها القرمزيتين فرأى الفلاح شيخاً مهيباً يجلس خلفها في الزاوية يحيط به فريق من الغلمان يتعاونون على تحريك مروحة هائلة منصوبة فوق رأسه صنعت من ريش ألف نعامة .

. ظل الشيخ الوقور يرفل في ثياب مزركشة فضفاضة ، تحيط به الوسائد الوثيرة ، ويرمقه طوال الوقت بنظرة كسولة لا مبالية كأنه يسبح بتفكيره في الفضاء البعيد.

لم ينطق بكلمة .

ثم قرروا أن يجعلوه يرى كيف يكون الكرم .

جاءت أرتال الحسناوات يحملن أطعمة زكية الرائحة في أطباق من الذهب الخالص . صففن الأطباق الخلابة في دائرة بين سريره ومقعد الشيخ الجليل الذي استمر يراقبه في صمت بنظرته الغائبة .

دعاه إلى الطعام بإيماءة من عينيه فقفز الفلاح وقد سال لعابه من فرط الجوع ومتعة الرائحة المنبعثة من الطعام .

هنا حدث ما قلب رأي الفلاح في الجنة رأساً على كعب .

إذ وقعت عيناه بالصدفة على قدم إحدى الجواري فرأى أن قدمها هي حافر حمار وليست قدم إنسان فعرف على الفور أنه الله لم يقرر استضافته في الجنة بعد وما يراه أمامه الآن ليس جنة الأنس وإنما جنة الجن(*) .

في البداية غمرته الرهبة وسكن قلبه الهلع ولكن ما لبث أن قرر أمراً فغسل يديه وتذوق من طعام الطبق الأول : طعام أسطوري له نكهة خفيفة وطعم يفوق الوصف . ثم تذوق من كل طبق بضعة لقيمات ، وفي كل مرة يستطعم الطعام ويلوكه لحظات متلذذاً محاولاً أن يتذكر متى وأين ذاق طعماً لمثله . في ذلك الوقت كان الشيخ يرمقه وقد رفت على شفتيه ابتسامة خفيفة كأنه يقرأ ما يدور في خاطره في تلك اللحظة . ولكن الفلاح الماكر كان قد بيّت أمراً وانتظر الفرصة المناسبة لتنفيذه . خاطب نفسه قائلاً : «ما دمت طردت من جنة الله ووجدت نفسي في رحاب الجن فلا بد أن أنهب حصتي من هذه النعم . لا يليق بالرجل الحاذق أن يعود من المولد بلا حمص!» .

قرّبت نحوه نفس الحسناء النافرة النهدين ذات الابتسامة الشفافة الساحرة طبقاً ذهبياً فخماً مزيناً بنقوش بديعة ومرصعاً بالجواهر الوامضة تحت الضوء وقد تدلت من جانبيه حلقتان ذهبيتان كبيرتان فقرر الفلاح الجشع أن ينفذ خطته على الفور فأمسك الطبق من عروتيه الرائعتين وصاح بأعلى صوته : «بسم الله الرحمن الرحيم. . .» وانطلق في قراءة مكسرة لآية الكرسي فخسف به الجن الأرض وخطفوا من أمامه القصر والأطباق الشهية والمخدع الوثير وطيروا الحسان وريش النعام ونكلوا به محاولين أن يخلصوا الطبق الذهبي من بين يديه الجشعتين ولكن الفلاح العنيد استمات في الدفاع عن غنيمته وظل متشبثاً بالحلقتين الذهبيتين متمتماً بالآية ومعشر الجان تلوّح به في الفضاء وتعود به إلى الأرض لتخليص متاعها من قبضته الحديدية .

في النهاية وجد الفلاح نفسه ملقى فوق الرماد الذي خلفته خيمة الشيخ غوما وخيوط الشمس الأولى تربت على كتفيه . جلس في العراء ونظر حوله في ذهول وغمرته السعادة لأن ما حدث ليس حقيقة وإنما مجرد كابوس . وكم كانت دهشته عظيمة عندما هم بالانصراف فوجد إحدى الحلقتين الذهبيتين معلقة في سبابة يده اليمنى !

وبالطبع وجد من بين الأهالي من طعن في رواية سليم الدنداني فقيل أنه ليس بغريب على فلاح مدمن مثله أن يتخيل ما لا يراه الآخرون . لأن اللاقبي هو الذي يقوده إلى عوالم ما وراء الطبيعة ويشحذ مخيلته فتنسج قصصاً لم تحدث ، أما الحلقة الذهبية النفيسة التي يتخذها سليم دليلاً قاطعاً على صحة قصته فقال هذا الفريق المشكك أن الدنداني عثر عليها في الرماد بعد أن صحا من سكرته وهي من مخلفات قبيلة الشيخ غوما التي غفل الجن في الإستيلاء عليها !

ولكن دعونا نعود إلى رفات النخلة الشهيدة السيئة الحظ التي قطعت العاصفة جذورها وحطمت قوامها الرشيق ثم جاء المرحوم مرزوق ليكمل عمل العاصفة فجزّ رأسها وسكر بقلبها بلا شفقة فانزلت به القصاص ـ كما يؤكد الأهالي ـ وواجه عقوبة الإعدام شنقاً في نفس المكان الذي ارتكب فيه جريمته !

الشيخ غوما ظل مخلصاً لانقاضها ، ولا يقضي القيلولة إلا تحت رأسها المقطوع الذي لا تبخل عليه النخلتان القبليتان بالهدهدة والحنان . فقرأ الشيخ في هذا المنظر أنبل مشاعر الأمومة والعطف وقال في نفسه أن الطبيعة أكفأ من البشر في التعبير عن الحب والحنان عندما تكون لديها الرغبة في أن تفعل ذلك . وكثيراً ما يقف أمام هذا المشهد الحزين ، يتأمل الأعجوبة ، ويفكر في المعجزة التي تجعل النخلتان المتقاطعتان تنحنيان في جلال ، باكيتان مسدلتا الأعراف ، لتمنعا جذع الأم المقدسة من السقوط إلى الأرض وتحيطا نهاية الساق الرشيقة عند الرأس المقطوع المجرّدة من الجريد في محاولة مستميتة لايقافه على قدميه وبعث الحياة فيه من جديد .

فرأى الشيخ في هذا المشهد رمزاً أبدعت الطبيعة في صنعه فنافست بموهبتها أقوى شاعرات القبيلة وأكثرهن كفاءة في اتقان اللعب بالرموز في قصائد الغزل أو الهجاء أو تمجيد البطولات الحربية!

في رقبة النخلة ـ أسفل الرأس المقطوع ـ تتدلى راية بيضاء جاء بها الفلاحون وعلقوها في أعلى الجذع بعد انتحار مرزوق بأيام قليلة معبرين بهذا العمل عن أعمق مشاعر الأسى والقداسة ومقدمين البرهان الذي يزكي النخلة ويؤهلها للدخول في قافلة الشهداء والأولياء الصالحين . بل أن إيمان البعض بأن أم النخيل ما هي إلا وليّ صالح جعلهم يرشون الجذع من الوسط بالجير فيبدو الساق المصروع للمشاهد مطوقاً بحزام أبيض بديع يضفي عليه مهابة الأضرحة المقامة على قبور الأولياء . وجاءت الفلاّحات بمباخر البخور وطفقن يتبركن ويتمسحن باكيات بجذع النخلة ـ طالبات من الأم الرحيمة أن تتكرم وتشفع لهن عند الخالق العظيم فيرق قلبه ويشفيهن من العقم أو يقي أولادهن من داء الجدري والبرص ويحميهن من كيد الحاسدات وتآمر العفاريت والسحرة على حياتهن وبلغ التطرف والطمع ببعضهن أن توسلت جثمان النخلة بأن يشحن أزواجهن بالفحولة ويكفيهم شرّ اللاقبي المستطير !

منذ أسابيع ضبط الشيخ إحدى هؤلاء النسوة متلبسة بمثل هذه الدعوات المشبوهة !

وجدها راكعة على ركبتيها تحت الجذع السفلي ، الذي تغزوه جيوش النمل ، تحرّك الجمرات في المبخرة لتنطلق سحب البخور وترفع قبضات من التراب وتغمر بها رأسها الحاسر من العصابة . وكانت طوال الوقت تلهج بالأدعية وتتمتم بالمطالب المخجلة. وقف يراقبها بفضول قبل أن تنتبه لوجوده وتختطف عصابتها وتفر هاربة حتى تختفي خلف الأحراش .

عرف غوما فيما بعد من أفواه الأهالي أن المرأة مصابة بمرض الشبق ، فأرسلت زوجها الأول إلى القبر متأثراً بالوهن وفقدان الشهيّة وسقط زوجها الثاني فريسة المرض أيضاً بعد أن امتصت قواه ورجولته حتى عجز عن التردد على الحقل واكتسحه الشحوب وأصبح هيكلاً عظميّاً مهدداً بأن يلحق بزوجها الأول .

وأرجع الأهالي السبب إلى مخدع تلك المرأة النهمة التي لا ترتوي من الرجال . وقيل في الواحة أنها قامت بزيارة للمغارة وطلبت من العراف أن يتدخل لإنقاذ الزوج الثاني ويمنحه القوة والرجولة . ولما أعتذر مهمدو عن تنفيذ رغبتها الجنونية وحاول أن يقنعها بأن ذلك لا يدخل في إختصاصه تهجمت عليه بالسباب وأتهمته بالتقاعس عن الأخذ بيد الضعفاء ـ أمثال زوجها ـ والتظاهر بالعجز في ممارسة إختصاصاته، وقالت أنها تعرف أنه يستطيع أن يفعل المعجزات عندما يريد ولكن مهمدو تذرع بأن الشيخوخة لا تسمح له الآن بالإسراف في مزاولة المهنة فقامت المرأة غاضبة وقالت أن الجاروف على حق إذ دفع أعوانه لرجمه بالحجارة!

وفي رواية أخرى أنها أضافت شامته قبل أن تنصرف : «آه لو لم يهرع ذلك الشيخ المخيف بسوطه الناري وينتزعك من بين أيديهم . كانوا مزقوك الآن إرباً إرباً يا عجوز النحس!» .

في البداية رأى الشيخ في اقتحام الفلاحين لمأواه إزعاجاً لراحته في القيلولة وعدواناً سافراً على حياته الخاصة يمكن أن يرتقي إلى مستوى المؤامرة . ولو كانت باتا ما زالت تتمتع بجمالها الذي يمنحها السلطة على قلوب الفلاحين لقال أن أصابعها وراء هذا الغزو لدياره . ولكن سلاح باتا نزعه الوباء الذي نهش وجهها

وأكل لحمها مما اضطرها إلى أن تخفي ذلك الوجه ـ الذي كانت تتباهى به وتعتبره مصدر قوتها ـ خلف قطعة زرقاء من القماش طوال الوقت كي تحجبه عن أنظار الفضوليين والشامتين حتى تشبهت بالرجال في ارتداء قناع القماش فطارها الأطفال بين الأكواخ وهم يصفقون ويرددون باستفزاز : «باتا راجل . باتا راجل!».

قام غوما بنزع الراية البيضاء من عنق الشجرة الطريحة وذهب في جولة إلى السوق وعندما مرّ على المكان في المساء في طريق عودته إلى حي الأكواخ تحت سفح جبل الرملة الجنوبي وجد أصابع الفلاحين قد غافلته في غيابه وزينت رقبة النخلة بالراية البيضاء . نزعها مرة أخرى وألقى بالخرقة في عين الكرمة . وفي اليوم التالي وجد الراية ترفرف على رأس الشجرة !

استسخف أن يستمر في منازعة هؤلاء المعاندين الأوباش وقال في نفسه ـ مبرراً ذلك ـ أنهم ربما كانوا على حق ـ في اعتبار أم النخيل وليّاً من أولياء الله الصالحين برغم أن ذلك يهدد تحويل المكان إلى مزار للعوام يؤمه كل من هب ودب وهو ما سيؤثر على خلوته. ويشكل خطراً على عزلته!

فجذع النخلة المتكيء على النخلتين المتقاطعتين مأواه الوحيد الآن .

فبعد أن أذن لقومه بتشييد أكواخ الجريد في السهل الرملي الجديد الملاصق لمرتفعات الرملة استسلم غوما ـ تحت ضغوط آهر وخليل ـ وقبل أن يبنوا له كوخاً تفصله عن كوخ الشيخ آهر مسافة لا تزيد عن المائة خطوة. انتقل آيس إلى المأوى الجديد وبقي آميس ـ ابن أمود ـ في بيت آهر. ولكن غوما لم ينم ليلة واحدة في هذه الزريبة حتى اليوم. وعلّق على السكن متهكماً: «هذه زريبة تصلح لإيواء الأغنام يا شيخ آهر ولا يليق بأهل الصحراء أن يحشروا أنفسهم في هذا الحبس وقد تعوّدوا على العراء الفسيح وفضاء الله الواسع بدل أن يتنفسوا في وجوه بعضهم في شبرين من الأرض المسقوفة بالجريد».

وبالفعل ظل الشيخ يتلحف بالسماء ويستلقي في العراء المجاور للكوخ بالليل

ويمضي إلى أنقاض أم النخيل بالنهار ويقضي القيلولة تحت ظلال النخلتين القبليتين الحنونتين . استمرّ مخلصاً لرفات نخلته الهيفاء !

في حين لم يمل آهر من أن يردد في مجالسه مع الوجهاء في القبيلة : «شيخنا يعاني من الحنين إلى الفيافي الرحيبة . حاله يصعب على القلب . ولكن لا حيلة ولا وسيلة . إذ كيف نستطيع أن نؤمن له الحياة في الصحراء طالما استمرت سماؤها على بخلها بالماء والسحب؟ أمود المكابر قام بمحاولة بطولية وضحّى بنفسه لاثبات أن الحرية لا توازي حياة تكفلها محاربة ألسنة الرملة المتحوّلة من مكان إلى آخر في واحات الشمال . وفضّل أن يجازف بحياته ويقدم نفسه قرباناً كي يعطي الدليل على أن الموت عطشاً في أحضان الخلاء أهون من إذلال الواحات أو تسلط رؤساء العمّال في المدن الذين يدفعهم الجنون كي يحاربوا الرملة بأيد عارية ويصرّوا على إبقاء الطريق في خط التماس المتوارث من عهود العثمانيين والطليان . أمود على حق . والاعتراف له الآن فضيلة . أم أن الجماعة يرون رأياً آخر؟» .

لم يجرؤ أحد من القبيلة حتى الآن أن يصرّح علناً بأن أمود لقي حتفه في الصحراء برغم يأسهم من عودته ويقينهم جميعاً بأن الشاب المتمرّد كان ينوي الإنتحار برحلته المغامرة . ولكن الشيخ غوما منعهم من مجرد الخوض في موضوع تلك الرحلة. فإذا جاء ذكر أمود في مجلس يحضره الشيخ رمق المتحدث بنظرة إرهاب فيتوقف فوراً. وإذا ترددت شائعة بشأن أمود تشكك في أمر رحلته لاحقها غوما وبحث عن مصدرها وأوصى لقائلها ببعض التهديدات والتحذيرات فتموت الشائعة على الشفاه.

مع مرور الوقت فهمت القبيلة أن رحلة أمود الغامضة إلى البيداء «موضوع ممنوع» يقيم عليه الشيخ بايماءاته وتلميحاته حظراً واضحاً .

وتروى في النجع حادثة شهدتها الأكواخ منذ شهور عندما جاء منصور برجوج من واحته خصيصاً ليمثل بين يدي الشيخ ويقدّم ـ عن حسن نية ـ تعازيه الحارّة في صديقه الحميم.

استقبله غوما في مقر إقامته النهارى ـ تحت النخلة ـ بعد الظهيرة فتجاهل عبارات التعاطف والمواساة التي تفوه بها منصور وحضرّها خصيصاً ليلقيها في هذا اللقاء فوجه الحديث وجهة أخرى كعادته عندما يريد أن يتجنب الموضوع المثار. قال أن مزاج الطبيعة لا يطمأن له. وما الموجات الأخيرة المتناقضة إلاّ دليل على تقلب هذا المزاج.

دهش منصور ولم يستطع أن يدرك ما يلمح إليه الشيخ خاصة وأنه يجهل أسلوبه في الحديث كما لم يحذره لا أمود في السابق ولا آهر الآن بما يدل على غرابة في أطوار الشيخ فدفعته سذاجته أو فلنقل حسن نيته إلى المعاندة والعودة إلى الموضوع باصرار طفولي. تبادل نظرة سريعة مع آهر ـ الذي حضر الجلسة ـ وقال ببراءة: «رحمه اللّه. كنت أعرف أنه سيفعل ذلك. أو فلنقل أنه أوحى لي بذلك بنفسه عندما ودعني في السوق عند زيارتي للواحة المرة الماضية. قال أنه تراجع عن تنفيذ قراره في العودة إلى واحات الشمال للبحث عن عمل بعد أنهيار مشروع السانية وضياع الحقل فرأى في الحلم جبال الرملة تزحف على الدنيا وتكتم أنفاسه. هو يرى أن لا فائدة من معاندة الرملة لأنها سوف تبلغ هدفها في النهاية طال الزمان أم قصر. حدثني بذلك منذ زمان عندما دخلنا في عراك مع لسان رملي عنيد تحت ربوة رأس الغرنوق...».

هنا شعر الضيف بأن الشيخ يعاني من الضيق ويكتم أمراً فلاذ بالصمت واستنجد بآهر قبل أن يعلن غوما وهو يضغط على الكلمات ويحاول أن يكبح جماح صوته «لا أعرف عن أى مرحوم تتحدث. إذا كنت تقصد أمود فإنه حي يرزق وما زال يطارد الغزلان في منفاه الذي يحسده عليه كل من تراه من هؤلاء المعممين البلهاء الذين لا يريدون أن يتوقفوا لحظة واحدة عن الثرثرة كأسوأ النساء. فمن أين لك بهذه المعلومات الخاطئة باللّه إن لم يتبرع بها هؤلاء متعمدين تضليلك؟ أنا أراهن على ذلك..».

ثم نهض واقفاً وانفرد بآهر وأمره بأن يعتني بالضيف ويتدبر كبشاً لتقديمه على العشاء وانطلق باتجاه السوق في خطوات واسعة .

لم تغب هذه الحادثة عن أذهان الوجهاء حتى اليوم فاستنكروا أن ينبري آهر الآن ويجاهر بمصرع أمود معتمداً على روايات الرعاة الذين أكدوا أنهم رأووا جمله الموسوم بعلامة + على الفخذ الأيمن يرتع في النباتات البرية اليابسة في «عوينة ونين» ، وهو نفس الجمل الذي قدمه له آهر عند الرحيل . تبادلوا النظرات ورأى الشيخ خليل أن النبل يقتضي أن يتصدّى لآهر ويدافع عن موقف الشيخ غوما أثناء غيابه فقال في نفسه : «حقّاً أن آهر غشيم» . ثم بصوت عال أمام المجمع :

ـ لا يجوز أن نبني أحكامنا على الأوهام وأقوال الآخرين . وليس من حقنا أن نسبق الأحداث ونتنبأ بمصير الرجلَ الذي لا يعلمه إلا اللّه .

فوافقه أغلب الحاضرين بهمهمة الاستحسان وهم يهزون العمامات المنفوشة.

تشجّع خليل وتحمّس للنقاش حتى أثار دهشة أغلب الحاضرين وهو الرجل المعروف بصمته وندرة كلامه فأضاف معقباً على آهر:

ـ أمّا حنين الشيخ للصحراء فمحنة عامة . من منا لا يحن إلى الفضاء والحرية برغم أننا نحاول أن نخنق هذا الحنين في داخلنا ونتظاهر بأن الأمور تسير على ما يرام؟ الحرمان من الصحراء جحيم كتب علينا جميعاً أن ندخله ونذوق طعمه وربما كان الشيخ أكثرنا شعوراً به. والخيمة التي يرى فيها رمزاً للجنة المفقودة لن تأتي له بالخلاص المنشود برغم أنها ربما قدمت بعض العزاء .

سرت الهمهمة وتقاربت العمامات وتمتمت الشفاه بالهمس وفاز خليل بالإعجاب وسدد بذلك ضربة موجعة لخصمه فنكس آهر رأسه وتظاهر بالإنشغال فى بناء مدينة وهميّة على الأرض.

سرعان ما وصلت أخبار هذه المعركة إلى آذان الشيخ فهنأ خليل في نفسه وتعمّد عدم الخوض في الموضوع حتى لا يحرج آهر ويعطى للآمر حجماً لا يستحقه .

جهاراً لم يعلق بكلمة !

* * *

في تلك العشية وقف الشيخ لحظات وهو يصغي لغناء الجنادب في الأحراش المجاورة ، فسمع دبيب الفلاحين في الحقول وأصواتهم الكسولة وهم يروّضون بعض الألحان الرتيبة ليعزوا بها أنفسهم ويشغلوا بالهم أثناء سحب المياه من السواني أو خلال تمزيق وجه الأرض بالمعاول والفئوس .

نفض الغبار عن لباسه الواسع وتوجه إلى الحي القديم .

في ساحة السوق شاهد الصبية يتجمعون عند السور المؤدي إلى طريق الشمال يتدافعون بالمناكب ويتخاطفون جريدة .

أبصر آيس بينهم .

اقترب من بائع خضراوات كفيف البصر يصيح للترويج لبضاعته واستدراج الزبائن لشراء خضراواته مستعملاً استعارات وأوصاف جسورة رأي فيها غوما إعتداء على الأخلاق العامة فتحاشاه وتقدّم من بائع الفحم فجاءه آيس وبادره قائلاً :

ـ في الجريدة يوجد إعلان عن النبع !

هتف بغبطة مفاجئة :

ـ حقاً ؟!

تقدّم من حلقة الصبية دون أن ينتظر جوابه واختطف الجريدة من بين أيديهم . انفضوا من حوله وتفرقوا في مجموعات ثنائية وثلاثية انصرفت كل جماعة في إتجاه .

بسط الشيخ جريدة «فزّان» أمامه وبحث عن الاعلان في نهم . وجده في صفحة الاعلانات (وهي ملحق من ورقة واحدة يتوسط الجريدة الأسبوعية الصادرة في عاصمة الصحراء من ثماني صفحات إذا استثنينا (الملحق نفسه) :

«المملكة الليبية المتحدة[1]

وزارة الزراعة والثروة الحيوانية

مصلحة المياه الجوفية والآبار بولاية فزان

اعلان عن مناقصة عامة لحفر نبع لقبائل البدو

التي تستوطن واحة آدرار

تعلن مصلحة المياه والآبار بولاية فزان عن طرح مناقصة عامة للشركات العاملة بالمملكة لحفر نبع ماء لقبائل البدو التى استوطنت فى السنوات الأخيرة بواحة آدرار وذلك تحت الشروط التالية : . . . »

انتهى من القراءة فطوى ملحق الاعلانات بعناية ودسّه في جيب القميص الداخلى تحت الثوب الفضفاض وصعد الطريق المتعرج الذى يخترق الأزقة الضيقة ويتلوّى كالأفعى وهو يتسلّق الجبل .

(2)

عقب انتحار مرزوق ورحيل أمود عانت السانية من سكرات الموت حتى أصبح الشيخ يتجنّب المرور على الحقل كي لا يرى الجداول البائسة المغمورة بالتراب والأعشاب اليابسة التى تتدلى منها ثمار ضامرة امتص العطش نضارتها وسحب منها الحياة فقرر أن يتخلّص منها بأسرع وقت. باعها لمختار الساطور بعد مفاوضات تدخل فيها القاضى الزبرجدانى وتوسط لعقد الصفقة بينهما فخسر غوما بمقتضاها نصف المبلغ الذى اشتراها به فى البداية من الشيخ الجاروف برغم تنازله عن اللوازم والمعدات وإدخالها ضمن الثمن المدفوع .

وبرغم الخسارة فإن الشيخ حمد الله وهنأ نفسه على الصفقة وقال في سرّه

وهو يتربع تحت أنقاض نخلته ويراقب الغروب : «لا يستطيع ابن الصحراء أن يدّعى التفوق إلى حد يجعله يربح صفقة مع أهل الواحات والمدن مهما كان صفيقاً وحاذقاً . ولكنى كسرت القيد وتخلصت من الكابوس . يكفى أنى تحررت . هم لا يعلمون أن تحررى من تلك السانية المشئومة هو أكبر نصر . فليعتقد البلهاء أنهم ضحكوا علي . أنا الذى كسبت الصفقة!» .

ثم نهض واقفاً واقترب من الجذع المزين بحزام الجير الأبيض الناصع وتناول الراية البيضاء المعلقة فى الجزء العلوى وقرأ عبارة كتبت بخط ركيك أخضر اللون : «لا إله إلا الله» . ثم استمر فى مونولوجه : «.. لا شك أن الشيخ الخبيث عبد الجليل الجاروف يفرك يديه فى مجالسه الخاصة ويقهقه شامتاً وهو يحتسى كؤوس اللاقبى رفعاً للمعنويات واحتفاء بالمناسبة ويردد بين الحين والآخر : «هذا طبيعى . البدوى لا بد أن يخسر مع ابن البلد . الخسارة مكتوبة على جبين أهل الصحراء .. هىء- هىء- هىء . البدو يتطاولون فى الزراعة . هىء- هىء- هىء . هذا من علامات القيامة!» . المجرم! يدس نفسه تحت لحاف امرأته الصبية كأجبن مخلوق ويشجع نفسه باللاقبى كى يفصح عن رأيه خلسة ! تنقصه الرجولة ليعلن عما يدور فى نفسه الحقودة ، لأنه يعرف أن ثمة سوطاً مفتولاً من ألسنة اللهب ينتظره بفارغ الصبر كى يدلك ظهره الخشن!» .

ولكن شعوراً مجهولاً بالقلق باغته فى تلك العشية وظل يضايقه حتى آوى إلى فراشه فى العراء فاستلمه الأرق ونكّل به حتى آخر الليل .

فِى الصباح اتخذ قراراً .

لم تمض أيام حتى نفذ قراره ففوجىء النجع والواحة على السواء بالشيخ غوما يرتدى أفخر لباسه فيمشى آهر على يمينه وخليل على يساره يتهادى فى السوق كالطاووس ليؤجر أول سيارة متجهة إلى عاصمة الصحراء .

وبرغم ما أثارته هذه الرحلة المفاجئة من البلبلة وعلامات الاستفهام إلّا أن أحداً لم يستغرب أن يظل الهدف من ورائها مجهولاً للجميع ـ ربما حتى للشيخين آهر

وخليل اللذان رافقاه فى الرحلة ـ طالما عوّدهم غوما على إحاطه قراراته ونواياه بالصمت والكتمان .

لم يعلموا باستقبال الوالى شخصياً لهم إلا بعد عودة الوفد من رحلته ظافراً ! أشرفوا على جوهرة الواحات فى قلب الليل فبدت أضـواءها البراقة فى الظلام كأنها أنتزعت كل النجوم من السماء ونثرتها على وجهها الراقد فى قلب العراء .

قضوا ليلتهم على مشارف العاصمة فى الخلاء الرملى الغربى ودخلوها عند الفجر مع صياح الديكة ودبيب الحركة .

قضوا ليلتهم الأولى فى الفندق الوحيد الواقع بشارع «النصر» . وفى اليوم التالى أصدر سكرتير الوالى أوامره بترتيب إقامتهم وتنظيم إعاشتهم على حساب حكومة الولاية فهرع الموظفون ونقلوهم إلى الاستراحة وأحاطوهم بمراسم مكثفة من الرعاية بمجرد أن علموا باهتمام الوالى بأمرهم . ولم يكن من الصعب على الشيخ غوما أن يتناهى إلى سمعه همس هؤلاء الخدم وهم يتقافزون حولهم ، يلبون طلباتهم ويهبون لتلبية رغباتهم ويسرعون إليهم بأدنى إشارة فيقولون فيما بينهم : «إنهم من أعيان قبائل الصحراء . يقال أن أحدهم صديق الوالى ورفيقه فى معركة محروقة أيام الجهاد ضد الطليان» . وقد سمع غوما ـ فيما بعد ـ من أكثر من مصدر مسئول فى الولاية إلى أن رصيد الوالى الذى أهّله لتولى المنصب الرفيع يرجع الفضل فيه إلى دوره فى معركة محروقة . فدهش غوما لهذه الكذبة الملفقة لأنه حضر معركة محروقة من أولها إلى آخرها ولم ير فيها ظلاً لسعادة الوالى . ولكن غوما الذى عرف سرّ اللعبة منذ بداية الاستقلال سكت على مضض من باب المجاملة واحتراماً للشيب المهيب فى لحية الوالى ورغبة فى ألّا يفسد زيارته بأمور تافهة تتعلق باقتسام الغنائم وتوزيع المناصب على أسس قبلية كما حدث عقب الاستقلال مباشرة . ولم يكن من المدهش أن يفوز العملاء والمتعاونين مع الطليان بنصيب الأسد فى المناصب طالما فوضهم الملك بالاشراف على التعيينات وتوزيع الأدوار والوظائف فكان نصيب الوالى ولاية فزان ليس لأنه اشترك فى معركة محروقة كذباً

وبهتاناً ولكن بسبب حظوته من الملك وعلاقته «بالعروة الوثقى» عندما كان يقيم فى ربوع مصر ويقضى شهور الصيف مع حاشيته على شاطىء البحر فى الوقت الذى يكتوى فيه المجاهدين بالنارين : نار من مدافع الطليان ونار من شمس الصحراء . فبأى حق يدعى هؤلاء الخدم والحشم أمجاد الجهاد لواليهم العتيد لو لم تكن العدالة مضطهدة في هذه الدنيا؟

نظم لهم سكرتير الوالى برنامجاً مكثفاً لزيارة كبار المسئولين : استقبلهم رئيس المجلس التنفيذى أولاً ثم رئيس المجلس التشريعى فى نفس اليوم . وفى الأيام التالية شملت الزيارات أهم نظّار الولاية : ناظر الزراعة والثروة الحيوانية ، ناظر المعارف ، ناظر المواصلات والطرق ومدير البوليس وحكمدار القوات المتحركة.

وتوّجت هذه السلسلة بمقابلة سيادة الوالى الذى أقام حفل غذاء فاخر على شرفهم دعا إليه رئيسى المجلس التنفيذى والتشريعى مفضلاً أن يستقبلهم فى قصره فى جلسة خاصة بعيداً عن جفاف المكاتب الإدارية ورتابة الروتين الرسمى وقبل كل شيء «كى يتمكن من التحدث مع الشيخ غوما من القلب إلى القلب ويستعيد ذكريات الجهاد المجيدة وخاصة معركة محروقة» كما طاب له أن يعبّر حرفيّاً .

أحاط طابور السيارات بالقصر المشيّد على ربوة مرتفعة تقع فى قلب العاصمة مع حلول الظهيرة وبدأت طقوس الوليمة على طاولة إفرنجية طويلة مزينة الحواشى بنقوش يدوية دقيقة متقنة صففت على جوانبها طوابير من الكراسى ذات المساند الطويلة محفورة بالنقوش اليدوية أيضاً .

جاء الوالى بلحيته الكثة التى يغزوها البياض ورحب بهم بحرارة ثم انبرى يثنى على دور غوما فى الجهاد ضد الطليان فى الشمال وفى صد الغزاة الفرنسيين من الجنوب . وقال يوجه كلامه لرئيسى المجلسين : التنفيذى والتشريعى أنه لا يستطيع أن يتصوّر حال فزان لو نجح الفرنسيس فى اختراق غات والنفاذ إلى طريق العوينات فى ذلك العام عندما تولى غوما التصدّى للجيوش المعادية ومحاصرتها فى

غات مدعوماً برجال الصحراء الأبطال . ثم عرّج على ضرورة توطين البدو وأكّد حرص صاحب الجلالة بنفسه على وضع هذه النية النبيلة موضع التنفيذ خاصة بعد كارثة الجفاف التى خيمت على الصحراء الكبرى فى السنوات الأخيرة .

هرع الخدم والحشم يقدمون الأطعمة الفخمة ويتسابقون فى جلب الأطباق المتوجهة بمختلف أنواع اللحوم .

لم تخل وليمة الوالى فى ذلك اليوم حتى من لحم الأسماك .

ثم وجه الوالى السؤال إلى غوما وهو يعبث بلحيته ويلوك فى كسل قطعة من اللحم الطازج :

ـ أرجو أن تكون محادثاتك مع المسئولين فى الولاية قد أثمرت . أقصد إلى أى حد كانوا إيجابيين فى تلبية مطالبكم؟

قال غوما وهو يمسح فمه بمنشف ناعم وينقر بأصابعه على طرف الطبق :

ـ إذا شئت الصراحة فلم نجن حتى الآن سوى الوعود برغم تواضع مطالبنا . وعدونا بجنات عدن التى تجرى من تحتها الأنهار فقلت لهم إننا قوم قنوعون ولا نريد من أنهار الجنة سوى نبع صغير فى واحة ادرار يكفى أولادنا شر العطش ويقيهم مرارة الجوع .

ضحك رئيس المجلس التنفيذى وابتسم الوالى بمرح . انتهز غوما الفرصة فقرر أن يخسف الأرض بناظر الزراعة والثروة الحيوانية الذى اشتكى من ندرة الموارد المالية ملمّحاً بذلك إلى صعوبة تنفيذ الحفر فى الوقت القريب . قال :

ـ ناظر الزراعة استبعد إمكانية الشروع فى المشروع ولمّح إلى بؤس الخزانة فقلت له بالحرف الواحد : «تعتقدون أننا نجهل ما يدور فى البلاد لمجرد أننا منفيين فى صحراء الرملة فى حين أننا نتابع باهتمام كل كبيرة وصغيرة وتصلنا آخر الأخبار التى زفت أخيراً بشرى تفجر ينابيع أرضنا الطيبة بسيول البترول . وأنا لا أرى بأساً إذا تكرمتم وسمحتم باستغلال بعض عوائد هذا السائل العجيب فى تفجير نبع صغير من الماء يروى العطشان ويسقى الجدول ليسد رمق الجوعان» فما كان من الناظر إلا

أن استلقى في كرسيه إلى الوراء وضحك طويلاً واستمر يضحك حتى ودعنى فى الباب فلم أعرف معنى تصرفه هذا: هل هو من قبيل الاستحسان أم من باب الاستنكار؟

غرق الحاضرون فى الضحك .

تفضل الوالى أيضاً وضحك بصوت خافت .

قال وهو مستمر فى مداعبة لحيته :

ـ من باب الاستحسان بلا شك . أوكد لك أن دعابتك أعجبته إلى حد أنه لن يتردد فى أن يقضى الليل يبحث عن بند فى الميزانية ليسارع فى تنفيذ المشروع .

ولكن غوما رأى أن يرمى بسهم آخر ليضمن حفر البئر نهائياً . قال :

ـ لم يفتنى على أى حال أن أقول له قبل أن أودعه فى عتبة الباب أن الطريق إلى طبرق مفتوح . وإذا اضطرنى الأمر فسوف أرفع أمرى إلى الملك وأنا على يقين أنه لن يردنى على أعقابى خائباً!

تضاحك الجماعة ولكن الوالى لم يضحك . اكتفى بابتسامة غامضة وهو يرمق غوما بفضول . لقد فهم لهجة التهديد الخفية فى كلام الشيخ فأدرك أن الوعيد موجه له بالدرجة الأولى فهنأ غوما ـ بينه وبين نفسه ـ على براعته فى إصابة عصفورين بحجر واحد .

استمر يرمقه باعجاب حتى انكفأ آهر على ظهره وسقط إلى الوراء مع الكرسى . فقد حاول آهر أن ينهض من كرسيه فتشبث لثامه بمسند الكرسى الطويل فتعثر الشيخ وفقد توازنه وأنهار مع الكرسى إلى الوراء . هرع لمساعدته فريق من الخدم الذين ظلوا يقفون فى ردهات الصالة وهم على أهبة الاستعداد لتنفيذ رغبات الضيوف بمجرد إيماءة من رأس أو إشارة من يد فوجدوا فى سقوط آهر فرصة لتقديم خدماتهم فأجلسوه إلى الطاولة وأحضروا له طستاً ليغسل يديه وهو ممتقع الوجنتين .

أثارت هذه الحادثة امتعاض غوما فسدد نحو زميله نظرة امتزج فيها الغضب بالتعاطف .

ساد صمت متوتر قبل أن يحاول الوالى انقاذ الموقف وإعادة الصفاء والمرح إلى الجلسة فقال وهو يرشف طربوش الرغوة الذى يتوج كأس الشاى :

ـ هل تذكر يا شيخ غوما ذلك الساحر الطريف الذى اشترك معنا فى معركة محروقة ؟ ما اسمه؟ مصمود؟ هل هو مصمود؟

خرج الشيخ خليل عن صمته وهب لمساعدة الوالى وصحح له الاسم قائلاً :

ـ تقصد مهمدو . اسمه مهمدو!

فتلقف الوالى الاسم وردده عدة مرات :

ـ مهمدو . نعم . نعم . هل تذكر يا شيخ غوما سقوطه فى الأسر وعودته إلينا عقب أيام بعد أن استطاع بمساعدة السحر الأسود أن ينوّم الحرس ويطلق ساقيه للريح؟

ضحك بوقار ولكن الشيخ لم يشاركه فى الضحك. قال فى نفسه أن الرجل يحاول أن يلجأ إلى الغش لاثبات مشاركته فى المعركة المذكورة فسرد تلك القصة التى سمعها من الرواة كى يذر الرماد فى عيون الحاضرين وخاصة رئيسى المجلسين ويدعم رصيده فى الجهاد .

آثر غوما اهمال سؤاله حتى لا يسبب بتعليقه الحرج لأنه لو حصل وعلّق فلن يكون تعليقه فى صالح الوالى على أى حال .

ولكن الوالى تشبث بموضوع الجهاد وسرد عدداً من القصص البطولية المختلفة فاستفز ذلك غوما ودفعه إلى التعليق. أثنى على جودة الشاى والاتقان فى تحضيره قبل أن يعلن رأيه فى الجهاد:

ـ أنا أعتبر أن المجاهد الحقيقى هو ذلك الذى يرقد بسلام تحت أحجار المقابر أمّا اولئك الذين كتبت لهم الحياة ـ امثالنا يا سيادة الوالى ـ فمن المخجل أن ندّعى البطولة لمجرد إننا أحياء نرزق. ولو سمع رفاقنا الذين استشهدوا لغطنا ونحن نتشدق بالجهاد ونتاجر بواجب حماية الأرض لقاموا من فورهم وبصقوا فى وجوهنا.

لا شك أنهم يتململون الآن فى قبورهم وهم يسمعوننا نثرثر آناء الليل وأطراف النهار ولا نمل سرد مآثرنا المزعومة ـ على حسابهم طبعاً ـ ونحن نحتسى الشاى الأخضر أو نحشو بطوننا الجشعة بلحم الخراف لمجرد أن الحظ حالفنا واطلقنا رصاصة طائشة فى معركة يتيمة!!

عقدت الدهشة ألسنة الحاضرين وتبادلوا النظرات فى وجوم كانوا يخشون أن يكون هذا الرأى الجسور قد سبب حرجاً لسيادة الوالى. وكان أكثرهم هلعاً رئيس المجلس التنفيذي الذى أحمر وجهه وعجز عن النطق فظل فاغراً فاه وحدقتاه تدوران فى الفراغ ببلاهة.

اغتصب الوالى ابتسامة باهتة وقال ملطفاً الجو المشحون بالتوتر:

ـ لا تستغربوا كلام الشيخ غوما فهو معروف بجرأته وشجاعته برغم أنى أجد نفسى مضطراً كى أخالفه الرأى واعتبر أن هذا التطرف من جانبه لا يمكن أن يقل درجة واحدة عن التضحية بالنفس. تطرف يرتقى إلى التصوّف والزهد. لأن قافلة الشهداء الأبرار هى فى رحاب اللّه ولا تحتاج إلى كل هذا التقديس من جانبنا. أنا أرى أن مكافأة الأحياء من المجاهدين واجب بدل البكاء على أضرحة الأموات منهم. نعم. لا يضيرنا أن نكرم الأحياء!

أيده رئيسا المجلسين بهزّ الرؤوس فانقذ الوالى بخبرته ودهائه الموقف الذى كان يهدد بتفجير الجلسة وافساد مراسم المجاملة التى تتطلبها ولائم الولاة.

عند إنصرافهم خرج الوالى وشيعهم حتى فناء القصر. طمأن غوما إلى أن كل شىء سوف يسير على ما يرام وأبقى يده بين يديه طويلاً وتمنى له رحلة موفقة بعد أن انتزع منه وعداً بألّا يبخل على عاصمة الصحراء بزياراته في المستقبل.

أما الشيخ غوما فقد شكره على الحفاوة وكرم الضيافة كما لم ينسَ أن يثنى للمرة الثانية على جودة الشاى والابداع فى تحضيره!

وكان يمكن حقّاً أن يسير كل شىء على ما يرام إلى النهاية لو لم تقع «حادثة المقهى» التى كدرت الزيارة وتركت فى الرحلة أثراً يمكن تشبيهه بالبقعة التى يتركها

الزيت على ثوب ناصع كما راق للشيخ خليل أن يشبهها.

أما القصة نفسها فقد رواها آهر على مسمع مهمدو فى المغارة بعد عودتهم من الرحلة فقال وهو يمسح دموعه ويتلوّى من الضحك مردداً بين الحين والآخر «شرّ البلية ما يضحك. حقّاً ما يقال..»: «.. تجولنا فى المدينة على أقدامنا برغم أن سكرتير الوالى لم يبخل علينا بالسيارات فرصد لنا لاند روفر وسيارة أخرى صغيرة لا أعرف اسمها يجلس خلف مقود كل منهما سائق يضع نفسه رهن إشارتنا. ولكن غوما فضل أن يتمشى ليطلق سراح رجليه ويتعب نفسه وهو تحايل أبتكره لمحاربة الأرق فى الليل...».

«بلغنا أطراف المدينة وعدنا على أعقابنا حتى أخذنا التعب فقررنا أن نلتقط أنفاسنا ونطفىء العطش فجلسنا فى مقهى على الشارع وطلبنا ثلاث كازوزات من البيبسى كولا. ولا أعرف حتى الآن أى شيطان دفع ذلك السيد ذو اللباس المهندم الأنيق أن يسخر منا فسمعته بأذنى هاتين يقول بصوت وقح عال مخاطباً زميله الجالس بجواره: «هذه البلاد لن ترى خيراً ما دام ثلاثة أرباع سكانها يصرون أن يمنعوا العلوم العصرية من الدخول إلى عقولهم فيسارعوا ليحموا رؤوسهم بالعمامات ويحكموا الرباط حولها بالزمالات الفارغة».

رمقنا بنظرة خاطفة حاقدة فلكزه زميله ورأيته بنفسى يغمزه بعينه وينبهه إلى وجودنا ولكن الشاب الطائش ركب رأسه واستمر فى استفزازه: «.. حتى الناحية الاقتصادية توجب منع هذه العمامات. فقل لى باللّه ما الفائدة من وراء محاصرة الرأس بعشرين ذراعا من الكتان الجيد فى الوقت الذى يسعى فيه ثلاثة أرباع الأطفال فى المملكة حفاة عراة يعانون من الجوع؟ آه لو كنت أحتل مكان رئيس الحكومة لاستصدرت قراراً منعت بموجبه هذا الإسراف فى استعمال الأقمشة! ثم أنظر إلى هذه القمصان الواسعة.. القميص الواحد يكفى لستر عورة نصف سكان هذا الحى!».

«هنا فوجئت بالشيخ غوما يقفز بخفة الشباب وفى يده يلوح ذلك السلاح

الشيطانى المستورد من جهنم وطفق يمزق اللباس الافرنجى الذى يلف به السيد الوقح جسمه البدين. ولم نستطع أنا وخليل أن نختطف السوط من بين يديه حتى إنتهى من عمله.».

عاد آهر فى نوبة من الضحك ثم أضاف: «.. استغفر الله. شر البلية ما يضحك. تعمد غوما أن يعبث قليلاً فاكتفى بتمزيق البدلة الافرنجية وترك الشاب عارياً كما ولدته أمه وسط ذهول الجميع. نعم. فعل ذلك بسرعة فائقة فلم يفق أحد إلا والولد العملاق يقف بجوار زميله عارياً يرتعد والعرق يتصبب من جبينه. هنا صاح غوما فى غضب: «هذه للذكرى. واحدة فقط من يد مواطن معمم بزمالة طولها عشرين ذراعاً».

ولهب ظهر الرجل بلسعة قاسية انبثق بعدها الدم فسقط على الأرض وهو يتلوى ويولول كإمرأة فى مأتم! تجمهر المارّة وتجمع زوار المقهى وجاء البوليس واخذونا جميعاً إلى المركز وفتحوا محضراً للتحقيق. ولكن رجال الوالى قاموا بدورهم فى الوقت المناسب واقبل ضابط برتبة مقدّم قدّم الاعتذار للشيخ غوما وأخذنا فى سيارته إلى الاستراحة.».

(3)

بعد شهرين ونصف من نشر الإعلان فى جريدة «فزان» استيقظ الأهالى على هدير سيارات الشركة اليونانية وراقبوا قوافل شاحناتها وهى تنحدر من الجبال الشمالية الموحشة بسرعة بطيئة وقد ارتفعت فوقها الآلات والرافعات والحفارات.

دخلت الواحة مثيرة عاصفة من الغبار وتوجهت إلى العراء المجاور لمعسكر الجان واتخذت منه مقرّاً لها برغم تحذيرات الأهالى من مزاج الجن وقدرته على المبادرة بالأذى إذا وجد من تجرأ واقتحم عليه خلوته!

ولكن مدير الشركة البدين القصير القامة رفض الامتثال لإلحاح الأهالى وأعرب علناً عن عدم إيمانه بوجود الجن أصلاً فيئس الأهالى وضربوا كفّاً بكف وتنبوءاً له بالمصير الأسود. ولكن الفقهاء وجدوا لهم مخرجاً وقدموا فتوى تقول أن

معشر النصارى أنفسهم عفاريت تربطهم بالعالم «الآخر» صلات وطيدة، ولهذا لا يستغرب أن يجاوروا معشر الجن فى إقامتهم. واتخذوا من اعترافات المدير الرقريقى [3] البدين وثيقة للتدليل على ما يقولون. فكان كونستانتيس يجيب على تخويفاتهم قائلاً بلغة عربية غاية فى الركاكة ورداءة النطق: «جين ما فيش! فيه أنا بس! أنا الجين!». أيقنوا فى النهاية أن الفقهاء على حق وكونستانتيس ما هو إلا جنّى حسب اعتراف نطق به بعظمة لسانه!

ولما استصعب الأهالى نطق هذا الاسم النصرانى المعوج فقد سارع الرقريقى وسهل لهم الأمر قائلاً وهو يثبت نظارتيه الذهبيتين على أرنبة انفه:

ـ كولوا لى كونسا! أنا اسمى كونسا! كونسا كفاية! مفهوم؟!.

ثم ذهب واجتمع بالشيخ غوما تحت أنقاض النخلة المقدسة وعاد ليبدأ بناء معسكره من ألواح الخشب التى جلبها من الشمال فى سيارات الشحن خصيصاً لهذا الغرض، فانطلق الخبراء الرقريق فى أنحاء الواحة، يهيمون على وجوههم ويسعون فى الأرض، يختبرون التربة ويعاينون المواقع ويقيسون مساحات الأراضى حتى وصفهم الناس بـ «الفرنجة المجانين الذين لا يعلمون هم أنفسهم ماذا يفعلون!».

ولكن الأهالى لم ينكروا البهجة التى جلبتها هذه الشركة معها وأدخلتها إلى حياة الواحة الراكدة. فما أن بدأ المحرّك يهدر فى الأطراف الغريبة ـ خلف الغابة ـ وبدأت الآلات الوحشية تفترس الأديم وتخرق الأرض حتى دبت الحركة وأقبل ابناء القبيلة المهاجرين إلى الواحات الأخرى وانخرطوا للعمل بالشركة كسائقى سيارات لاند روفر أو شاحنات أو مجرد عمال أو عاطلين مقنعين عن العمل يتقاضون مرتبات آخر الشهر دون أن يبذلوا جهداً ودون أن يسند لهم عمل يذكر حتى أن الشيخ غوما لم يخف غبطته بعودة شباب القبيلة وقال فى إحدى جلساته أنه لم يكن يعلم أن الشركات اللعينة تقوم بدور ذلك الحمار الشيطانى الذى تتحدث عنه الاسطورة إلاّ اليوم. ولو كان يعلم لقصد الوالى من زمان وطلب منه أن يعيره شركة من الشركات تستقطب له الشباب وتغريهم للبقاء فى الواحة بين ذويهم حتى إذا فرغت من مهمتها وطاب لهؤلاء المغامرين المقام أعادها له شاكراً!.

تضاحك الحاضرون ولكن القاضى الزبرجدانى لم تشبع النكتة فضوله فسأل غوما بإلحاح طفولى عن الحمار الشيطانى الذى ورد ذكره فى الاسطورة فقال غوما متأففاً: «فى آخر الزمان سيأتى الشيطان راكباً حماراً كى يجمع أتباعه ويأخذهم إلى الجحيم. فيلقى لهم بكل ما لذ وطاب وهو فى طريقه إلى هناك فيتدافع الناس الأغبياء وراءه بدافع الجشع والطمع ويستمر يغريهم بالمقتنيات الزاهية والاشياء الملونة والاطعمة الحلوة حتى يبلغ الهدف فيسقط الاتباع فى بئر بلا قرار!». ضحك الحاضرون مرة أخرى ولكن القاضى أخرج قلماً وورقة ودوّن بعض الملاحظات دون أن ينسى التعبير عن امتنانه للشيخ غوما على هذه الهدية الحكيمة لأنه ـ كما قال ـ أصبح يملأ أوقات فراغه فى السنوات الأخيرة بتجمع الأمثال والحكم القديمة ولا شك أن هذه الاسطورة تحمل رمزاً عميقاً يصلح للتدليل على ما يجرى اليوم فى مسرح الحياة العصرية التى يشير فيها كل شىء إلى أن الناس ذاهبون بسرعة جنونية وراء الحمار الذى يسوقهم حثيثاً إلى الجحيم!.

ثم تشعب الحديث وعرّجوا على النصراني كونسا وتناولوا بالتفصيل الخطر الكامن في نفيه لوجود الجن الذى ورد ذكره فى القرآن فرأى الفقهاء أن واجبهم الدينى يقضى تنبيه الرقريقى بعدم التدخل فى شئونهم الدينية وأقترحوا أن يقوم القاضى بالتفاوض معه فى هذا الشأن واوصوه أن يبلغه بالحرف: «لكم دينكم ولى دينى» وقالوا له أن عليه أن يلتزم بهذا القانون إذا أراد أن ينتهى عمله فى الواحة على خير. وبالفعل تحمل الزبرجدانى هذه المسئولية وابلغ كونسا بما أجمع الجماعة عليه واجتهد فى الوصية وأضاف عليها بعض البهارات من عنده فهدد النصرانى بسبابته محذراً من مغبة التشكيك فى وجود الجن طالما ورد ذلك فى القرآن!.

ولم يكف القاضى عن وعيده حتى انتزع وعداً قاطعاً من كونسا الشقى فى ألّا يتدخل لا هو ولا أى أحد آخر من رفاقه فى شئونهم الدينية وأن يحافظ على تقاليد

حسن الجوار مع مستعمرة معشر الجن. ولم ينس القاضى أيضاً أن ينبه الرقريقى إلى أن اللعبة المفضلة للقوم السفليين هى التقاتل بالخناجر التى رآها عابروا السبيل تلمع تحت الضوء فى الليالى المقمرة!.

وامعاناً فى الإرهاب عاد القاضى قبل انصرافه يشهر سبابته فى وجه النصرانى المبهوت ويهدده قائلاً أن التطاول على القرآن فى عرف الواحة تهمته الزندقة وعقوبته فصل الرأس عن الرقبة!.

فى اليوم التالى رفع كونسا مظلمته إلى الشيخ غوما وقال له أنه لا يعرف السبب الذى يدعو القاضى الوقور يشن عليه هجوماً كهذا ويمارس ضدّه القمع فطمأنه الشيخ وشدّ من أزره وحدثه طويلاً عن طباع أهل الواحة التى تبدو خشنة لأول وهلة فى حين تخبىء وراء هذا القناع قلوباً أرق من قلوب العصافير!.

اثلج كلام الشيخ صدره فعاد الرقريقى إلى عمله ومرحه. ولم ينس أن يمر فى طريقه على الغابة ويعقد صداقة مع الفلاحين ويقضى معهم السهرات يحتسى اللاقبى ويرفع عقيرته بالأغانى النصرانية الحزينة، وقد شوهد أكثر من مرة وهو يعود إلى معسكره على ظهر حمار مخموراً يجلس وراء فلّاح ثمل أيضاً ويتلعثم محاولاً أن يصطاد اللحن الذى يناسب مزاجه فى تلك اللحظة.

ويجب الاعتراف أن ملاحظة القاضى لم تغب عن باله منذ ذلك اليوم. فإذا قال كلاماً لم يرق لمحدثه لسبب من الاسباب سارع كونسا يتساءل: «هل هذا يخالف الكرآن؟». حتى إذا أجابه محدثه بالنفى رفع كلتا يديه إلى السماء على طريقة المسلمين وردد فى خشوع مقلداً الائمة: «الهمد لله!». وعندما قيل له أنه يبالغ فى الحرص على عدم مخالفة القرآن ضحك وأجاب أنه لا يفعل ذلك من باب التقوى وإنما يخشى أن يثير غضب القاضى الزبرجدانى. ويتردد فى الواحة أنه أدلى بتصريح حكيم فى هذا الخصوص عندما قال ما مضمونه أن الإنسان فى زماننا لا يخاف الله بقدر ما يخاف الخلق. وبرر هذا الرأى الجرىء بلغة مبسطة فأكد أن آلهة كل الأديان أرحم على الإنسان من أصغر رجل دين. وكى لا يتهمه الحاضرون

بالتحامل على فقهاء الشريعة الإسلامية شن هجوماً عنيفاً على قساوسة كل كنائس الدنيا ووصفهم بالمنافقين الأنذال دون أن يعرف الأهالى سبب هذه القساوة ضد رجال دينه.

بعد أسابيع تسكعت شائعة فى الواحة تقول أن هذا الرقريقى المغامر قد عرف الطريق إلى أبعد من الغابة: إلى بيت زهرة فى الحى القديم!.

لم يصدق عقلاء الواحة فى البداية. ولكن الشيخ الجاروف ما لبث أن نصب له كميناً فضبطه متلبساً فى بيتها بلا لباس!

هنا أدرك كونسا ـ بعد فوات الأوان ـ أنه كان يلعب بالنار فأضيفت سابقة أخطر من الطعن فى وجود الجن والتشكيك فى القرآن إلى صحيفة حياته فى الواحة. وهو الذى لم يكن ليتصوّر ما يعنيه معاشرة نصرانى لامرأة مسلمة حتى لو كانت هذه المرأة من بنات الشارع السيئات السمعة أمثال زهرة!.

استغل عبد الجليل الجاروف هذا الإستهتار من جانب الرومى وقرر أن يوجه لمشروع الشيخ غوما ضربة موجعة فأقام الدنيا ونشر البلبلة بين الأهالى وشن حرباً كلامية مكثفة تصف الرقريقى بأحط الأوصاف الأخلاقية وتتهمه بأنه لم يأت إلى الواحة أصلاً للبحث عن منابع الماء وإنما للبحث عن شيء آخر تخبئه النساء السيئات السمعة!.

وبلغت به الوقاحة والحقد حدّاً جعله يعقد إجتماعاً فى الجامع حضرة الأعيان والوجهاء والفقهاء والقاضى لمناقشة مصير هذا النصرانى الوقح الذى تجاسر اليوم وغزا بيت زهرة، واللّه وحده يعلم نواياه الخفية فربما سوّلت له نفسه أن يتسلل فى الغد إلى بيوت الشرفاء المجاورة. وبالطبع تعالت هتافات الاستنكار تحت تأثير التحريض خاصة وأن الأمر يمس الشرف ويهدد بتدمير الأخلاق وقواعد الدين الحنيف، وطالب المجتمعون باتخاذ الاجراءات الفورية لردع هذا الداعر وانزال أقسى العقوبات وبلغ الحماس بالبعض أن طالب بتمزيق جسده بمائة جلدة حسب الشريعة أو رجمه بالحجارة حتى الموت. وقد شعر الجاروف أن الزمام أفلت من

يديه فحاول أن يخفف من قسوة العقوبة ويكتفى بنفى الجانى خارج حدود الواحة فيضمن إيقاف الحفر والإطاحة بمشروع النبع أو عرقلته وهو أضعف الإيمان! ولكن الجمع الهائج أصرّ على أذاقة الكافر طعم القصاص وانزال العقوبة القرآنية بالمجرم فى ساحة السوق طالما ضبطه الجاروف بنفسه متلبساً بجريمته البشعة فمال نحو القاضى وطلب منه هامساً أن يهدىء من روع الغاضبين واستنجد به كى يتدخل للتلطيف من حدّة التوتر. قال القاضى وهو يسكت أحد الفقهاء بحركة من يده ويحرّك بمروحته الفخمة المزينة بريش النعام الكثيف:

ـ مهلاً يا جماعة! لا يجوز للعقلاء أن يطلقوا العنان لعواطفهم كما يفعل الدهماء والرعاع. إذا اجتمع الأعيان والعقلاء وأهل المعرفة والعلم انتظر منهم بقية القوم أن يخرجوا بنتائج تليق ببياض شيبهم وتناسب عقلهم وحكمتهم.

صمت وطاف على الحاضرين بنظرة عامة كى يرى مدى تأثير خطابه عليهم ثم أضاف وهو يواصل تحريك المروحة أمام وجهه:

ـ يجب أن نحتكم إلى الحكمة ونلتزم ضبط النفس. أنا لا أريد أن أخالف تعاليم ديننا الحنيف. حاشا اللّه! ولكن الموافقة على تنفيذ عقوبة بهذه القسوة لن تمر دون أن ينقلب السحر على الساحر كما يقولون فتناً لنا عقوبة الحكومة!

سرت همهمة بين المجتمعين وواصل القاضى ابداء رأيه محاولاً أن يكبح جماح الغاضبين ويصب على الجمر المتوهج قلّة من الماء البارد:

ـ نسيتم أن فى الدنيا حكومة لها رأى قد يخالف رأينا وقانوناً يخالف قانوننا وحكماً يخالف حكمنا ورأياً يخالف رأينا. واللجوء إلى الرجم قد يودى بحياة النصرانى فأى مبرر نقدمه للحكومة عندها؟ وأى مبرر تقدمه حكومتنا إلى حكومته؟ هل فكر أحدكم فى أمر كهذا قبل أن تهتفوا بأقسى العقوبات وتطالبوا بأقصى قصاص؟

عادت الأصوات ترتفع بالهمهمة وبدت علامات الارتياح على ملامح

الجاروف فردد عبارات التأييد لموقف القاضى ودفعه الحماس لأن يحشر أنفه مرة أخرى ويصرح:

ـ أنا أقترح أن نخفف من العقوبة. أبعاده من الواحة حل وسط يرضى الأهالى ولا يغضب الحكومة. الأبعاد حل معقول!.

هتف أكثر من صوت: «الأبعاد. الأبعاد. ابعدوا الفاجر! اطردوا الكافر!». ولكن القاضى أسكتهم مرة أخرى بحركة من يده اليسرى وغمر وجهه بموجة من الهواء بالمروحة وقال بوقار متعمداً أن يتجاهل اقتراح الجاروف:

ـ هناك رأى وحيد يؤيده الشرع والدين ويدعمه العقل والحكمة وهو أن يدخل الرقريقى الإسلام ويعقد على المرأة على سنة الله ورسوله!

هلل الحاضرون وكبروا وهنأوا القاضى على حذقه وحصافة رأيه وانطلقت من أفواههم سيل من عبارات الاستحسان والاعجاب فاكتأب الجاروف وواصل الزبرجدانى:

ـ لا يجوز للرومى أن يعاشر مسلمة فى الشرع الإسلامى إلاّ إذا أشهر إسلامه! وإذا استطعنا أن نقنع هذا الكونسا فى الدخول إلى رحاب ديننا الحنيف فإننا لا ننتهى من المشكلة فقط ولكننا نربح الأجر أيضاً ونتخلص من زهرة التى تسىء بسمعتها إلى الواحة . وهكذا نصيب عدة عصافير بحجر واحد!

تعالت الصيحات وسمع الزبرجداني عبارات إستحسان مثل: «الله ينصر دينك ياسى القاضى!» أو «لقد نورتنا الله ينور طريقك!» أو: «خلصتنا من الكافر ومن زهرة، الله يخلصك من كل شر بجاه النبى محمد صلى الله عليه وسلم».

هنا تململ الجاروف وأعلن إعتراضه فى صورة شك «برىء»:

ـ ولكن نسيتم أن هذا الرومى يمكن أن يتمرد ويرفض الدخول فى الإسلام. قولوا لى ماذا سنفعل إذا تجرأ ورفض اقتراحنا؟.

سارع الزبرجدانى ينقذ الموقف فقال ببرود:

- امنحونى فرصة لمفاوضته. سأحاول اقناعه!

ارتفعت الحناجر بالتأييد وسكت الجاروف على مضض!

(4)

كان القاضى على يقين أن قرار التخلص من زهرة وترتيب تعليقها فى ذمة النصرانى لن يروق لفريق كبير من وجهاء الواحة وحتى جانب من الفقهاء الذين يدعون التقوى والفضيلة فى حين يهرعون فى آخر الليل إلى بيت زهرة نشدانا للسلوى وترويحاً عن النفس التى أنهكها جفاف الحياة فى الواحة!

ولهذا السبب قرر الزبرجدانى فى سبيل إقناع هذا الرومى الشيطان أن يتسلح بالصبر ويحضر للمواجهة فقضى الليل يذاكر الكتب الصفراء تحت ضوء فنار الكيروسين الخافت ويبحث فى ثناياها عن منطق النصارى فى النقاش ورأى المسيحية فى قضايا الزواج والطلاق والزنى ومعاقرة اللاقبى! ثم جاء إلى معسكر الشركة فى الصباح وطلب مقابلة كونسا على إنفراد.

لم يتوقع كونسا خيراً بمجرد أن رأى صلعة القاضى تلمع تحت شمس الأصيل فأجلس ضيفه على الكرسى وتعمد أن يقعى هو على الأرض محاولاً أن يخفى امتعاضه وانزعاجه من المواجهة بتثبيت نظارته الذهبية على أنفه الأحمر. والواقع أن احمرار الأنف يبدو خفيفاً إلى جانب احمرار وجهه وتوتر ملامحه فعرف الزبرجدانى أن خمرة البارحة ما زالت تلعب برأس الرومى.

استعمل القاضى كل خبرته فى الحياة وفى القضاء كى يقنع كونسا بالدخول فى الإسلام والزواج من زهرة واستخدم مطالعاته ومعلوماته عن سلوك النصارى وأخلاقهم وعاداتهم للضغط على الرجل وإجباره على الرضوخ. وعندما رأى التردد فى عينيه سارع يلقى بآخر سهم: «هذا إذا أردت النجاة. لا أخفى عليك أن حياتك فى خطر!».

صمت طويلاً قبل أن يعلن عن احتجاجه قائلاً أنه متزوج وله أولاد، فحاصره الزبرجدانى ووجد له الحل فوراً:

ـ ولكن لا تنس أن ديننا يبيح تعدد الزوجات! من حقك أن تتخذ أربع إذا شئت!

فكر كونسا فى العرض مطاطىء الرأس ثم طلب مهلة للتفكير فى الأمر فأدرك القاضى أن مساعيه قد كللت بالنجاح.

وبدل أن يطلب كونسا المشورة من رفاقه الروم ذهب إلى الشيخ غوما واشتكى له إرهاب القاضى وسكب بين يديه دموعاً حارة طالباً أن يساعده فى إيجاد مخرج من هذه الورطة ولكن غوما ـ الذى تجنب دائماً الدخول فى مثل هـذه المتاهـات الشخصية خاصة عندما يتعلق الأمر بالأخلاق والزواج والطلاق ـ رفع رأسه وتعلق بالأفق مزموم الشفتين جامد الملامح. صمت طويلاً فقرر الرقريقى أن يخوض غمار المغامرة.

ذهب إلى القاضى فى بيته وزف له البشرى ضاحكاً فضحك الزبرجدانى أيضاً وسقاه كأسين من الشاى الأخضر وأرسل فى طلب مختار الساطور أمام الجامع كى يشرف على مراسم إشهار الإسلام والنطق بالشهادتين على أن يقوم هو بإعداد الترتيبات اللاحقة. ولما كان الفضول صفة تميز النصارى عن بقية الخلق فقد تساءل الرقريقى عن نوع هذه الترتيبات ففوجىء بالقاضى يقول: ـ

ـ الطهارة! لا بد من الختان. ديننا يمنع الدخول على المرأة دون أن. . .

إحمر وجهه من فرط الحياء وتصببت حبات من العرق على جبينه وهو يأتى بحركة من يده جعلت حتى الرومى يفهم ما يريد أن يقول.

إحمرّ وجه كونسا أيضاً ولكن بسبب الخوف فسارع القاضى وهدّأ من روعه وأخبره أن ذلك يدخل ضمن الطقوس الروتينية التى لا تتطلب متاعب كثيرة أو ترتيبات خاصة.

استمرّ كونسا ينكس رأسه وملامح وجهه تفضح توتراً واضحاً فلم يعرف القاضى عما إذا كان التوتر هو الخوف من المصير الذى ينتظره بالختان أم بسبب الخجل الناتج عن العملية نفسها. وقال فى نفسه: «لا يستطيع المسلم أن يتنبأ بما يمكن أن يفكر فيه هؤلاء النصارى الدهاة!». فحدثته نفسه أنه ربما ارتكب خطأ في التكتيك. إذ ما كان يجب أن يتسرع ويرهب الرومى بالطهارة قبل أن يضمن نطقه بالشهادتين فيقطع عليه خط الرجعة. هذا الصوت الداخلى هو الذى جعل القاضى يصر على إتمام مراسم الإشهار فى الحال برغم تردد كونسا الواضح فبعث برسول آخر إلى الإمام وطلب منه أن يسرع بالحضور ودخل إلى حجرة داخلية يفتح بابها على البهو الفسيح ـ حيث كانا يجلسان ـ وعاد بطبق من السعف متوج بالكعك وخبز التنور وحفنة من حبّات اللوز وضعها أمام الرقريقى وعاد على عقبيه مرة أخرى وجاء بطبق صففت عليه أدوات الشاى مقرراً أن يلهى «ضحيته» إلى أن يأتى مختار الساطور ويضمن وقوعها بين فكى الفخ!

جاء الإمام وتربع قدّام الزبرجدانى متهلل الأسارير، بهى الطلعة، وقال وهو يفرك يديه كأنه ينوى أن ينحر شاة لا أن يستقبل مؤمناً فى رحاب الإسلام:

ـ إعلم يا كونسا أنه ليس ثمة ما هو أسهل من الدخول فى الإسلام.

أخرج مصحفاً منزوع الغلاف متآكل الأطراف وأضاف بوعيد وهو يرمق الرقريقى من طرف خفى:

ـ . . . ولكن الخروج منه هو الصعب. أتدرى ما هى عقوبة الكفر عندنا؟

رفع رأسه ومرر إبهامه على رقبته مشيراً إلى أن العقوبة تعنى فصل الرأس عن الجسد فانكمش كونسا على نفسه وتمتم ممتقع الوجه:

ـ يا حفيظ!

سارع القاضى يلطف من إرهاب الإمام وهو يقدّم لهما الشاى فى كأسين مجردين من الرغوة:

ـ ومع ذلك فإن الإسلام هو دين التسامح والمحبة. لا تهتم كثيراً لما يقوله المتطرفون والمتعصبون أمثال الإمام مختار. إن لهم طبيعة غير مستحبة تميل إلى القمع وإرهاب الراغبين فى الدخول إلى ديننا الحنيف.

إغتصب الإمام الابتسامة قسراً معتبراً تهجم القاضى على شخصه من قبيل المزاح. إفترش منديلاً على الحصير وضع فوقه المصحف بعناية وهو يتمتم ببعض الآيات لإضفاء المهابة على الموقف وإعطاء الفخامة لطقوس الدخول فى دين يحرض على البساطة ويدعو إلى السماح والتسامح.

قال:

ـ الآن ردد ورائى: بسم الله الرحمن الرحيم.

إستنجد النصراني بالقاضى ونظر إليه فى ضراعة فشجعه الزبرجدانى بإيماءة من رأسه.

تمتم كونسا:

ـ بسم الله الرهمن الرهيم..

ـ أشهد أن لا إله إلا اللّه.

ـ أشهد أن لا إله إلا الله.

ـ ..وأن محمداً رسول اللّه.

ـ ..وأن مهمداً رسول اللّه.

ـ إذهب فأنت مسلم منذ هذه الساعة.

تساءل الرقريقى وهو ينظر إلى القاضى:

ـ خلاص؟

هنأه الزبرجدانى بابتسامة عريضة ثم قام وعانقه قائلاً:

ـ خلاص. هذا كل شيء أنت الآن واحد منّا. لا فرق بيننا وبينك.

هتف كونسا وهو يرفع يديه نحو السماء:

- الهمد لله!

ولكن الإمام قصر من عمر فرحته بسرعة:

- ليس هذا كل شيء. هناك مراسم الختان ليلة الجمعة إن شاء اللّه. بعد غد.

رأى الهلع في مقلتي كونسا فتدارك الموقف:

- سأحاول ألا يكون ذلك أليماً على كل حال. سوف يحضر الممرض إذا كنت لا تثق بي!

عاد القاضي إلى مجلسه قبالتهما وقال مدحرجاً الجمر في الكانون بمهماز زيّن طرفه العلوي عند المقبض بنقوش بديعة:

- سوف تحتاج إلى حفظ بعض الآيات لتستعين بها في صلواتك: سورة الفاتحة وسورة أخرى قصيرة فلنقل سورة «التوحيد» إذا شئت.

هز كونسا رأسه بالموافقة ونهض الإمام وهو يعيد المصحف إلى جيبه قال:

- حان موعد آذان العصر. يجب أن أؤذن للعصر. السلام عليكم!

دهش القاضي وهو يسمع الرقريقي يرد التحية قائلاً:

- وآليكم السلام.

فقال في نفسه أنه تأقلم في الدين الجديد بسرعة وتنبأ له بمستقبل باهر وأيقن أنه سينال أجراً عظيماً في الدار الآخرة مكافأة له على نجاحه في استدراج «الكافر» إلى الصراط المستقيم.

كان على يقين أن النصراني سيكون مسلماً صالحاً!

(5)

ليلة الجمعة، مع العشية، بدأت طقوس تطهير كونسا من النجاسة!

الإمام مختار قال أن الختان شرط أساسى لاعتناق الإسلام فلم يكن أمام الرقريقى إلا الإستسلام!

حاصره مختار بين جدران الجامع بحضور الزبرجدانى والممرض مسعود وهو يغرقه فى زوبعة كثيفة من البخور الكريه الرائحة فى حين تجمع لفيف الفقهاء والفضوليين فى البهو الخارجى يقرأون القرآن أو يسترقون النظر إلى ما يجرى فى الداخل من النوافذ المفتوحة أو ينهمكون فى تبادل المعلومات عن آخر الفضائح الأخلاقية أو يسردون أخبار الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق. وبرغم قداسة المكان ومهابة الموقف إلا أن أحد الفقهاء المعروفين بجرأتهم فى تسمية الأشياء بأسمائها مال على أحد المعلمين القادمين من الشمال خصيصاً لشحن رؤوس الجيل الجديد بالعلوم العصرية وباحَ له بمخاوفه من أن كل ما يفعله هذا الكافر الداهية مجرد تمثيلية بارعة للإستيلاء على جوهرة الواحة: زهرة! وأضاف الفقيه الجسور هامساً فى أذن المدرس الشره قائلاً أن ارتباطها بعصمة الرقريقى سوف يجعل الواحة تعانى من الفراغ وهو شخصياً لا يتصوّر الدنيا بدون زهرة!

المعلم النهم أيّده بهزات متتابعة من رأسه.

بعد قليل أقبلت النسوة أيضاً يجرجرن أطفالهن ويتلحفن بلباس المناسبات احتفاء بالحدث تحلقن فى دائرة واسعة خارج السور وسرعان ما تناطحن برؤوسهن وانطلقت ألسنتهن تردد آخر الشائعات فى حين مزق الأطفال الهدوء بالبكاء وهم يتشبثون بتلابيب أمهاتهم المشغولات فى القيل والقال.

بين جدران الجامع أخرج الإمام مختار الساطور عدة العمل من جراب صوفى ملون تعوّد ألاّ يفارق منكبه الأيمن قائماً بدور المحفظة الجلدية، ولما سأله القاضى فى احدى الجلسات الرائعة عن سبب تشبثه بجراب الصوف قال أن ثمة عداوة مميتة بينه وبين جلود الحيوانات من زمان. وأضاف بيقين وهو يهرش رأسه: «الأمر لا يخلو من مكيدة سحر دسّها لى الأعداء والحسّاد فى جلود الحيوانات» وقال أيضاً أن البقع الحمراء تغزو جسمه ويصيبه الدوار بمجرد أن يضع فى جيبه محفظة جلدية. وحدث

مرة أن بلغت به حالة الغثيان حدّاً جعله يترنح فوق المئذنة ويكاد يسقط إلى الأرض أثناء تأدية آذان الفجر. وعندما بحث عن السبب إكتشف أن زوجته قد غافلته وطوقت معصمه بخيط من الجلد - بدل خيط القماش - كي تجبره ألا ينسى أن يمر على السوق فى طريق عودته إلى البيت ويشترى لها من تجار القوافل زجاجة من تلك العطور المسحورة الكريهة الرائحة التى يتاجر بها هؤلاء الحذّاق الغشاشون ويستوردونها من قبائل الهوسا فى كانو.

هذا بالنسبة للجراب الصوفى. أمّا المقص الأسود الضخم فقد أثار الرعب فى نفس كونسا المسكين، ففتح فمه واستنجد بالقاضى دون أن يصدّق على ما يبدو أن بالإمكان استعمال مقص وحشى كهذا فى الختان.

والواقع أن الرقريقى على حق. فقد تعددت الأغراض التى تعوّد مختار أن يستعمل فيها هذا المقص المخيف بداية بجز الأغنام ونهاية بتشذيب اللّحى وتقليم الأظافر وحلق الشعر على رؤوس الأطفال.

أمسك الإمام بالمقص وأمر كونسا أن ينزع سرواله ولكن الرقريقى هزّ رأسه بالرفض كالطفل. تبادل مختار النظر مع القاضى ثم انتقل تبادل النظرات مع الممرض مسعود الذى نكس رأسه بسرعة فقال مختار مطمئناً:

- هذا لن يؤلم. أنت لست طفلاً ولست الوحيد الذى أقوم بتطهيره فدعنا ننتهى من عملنا باللّه!

ولكن كونسا بدأ يرتعد ويغرق فى العرق. إلتفت نحو الباب فعرف الإمام بخبرته أن الداهية ينوى الهرب فهجم عليه وجثم على صدره بحركة مفاجئة خبيرة. صرخ كونسا حتى سمعه المجتمعون فى الخارج وطار صوته حتى وصل إلى النساء المتجمهرات خارج السور: «أنا مش مسلم. أنا مش مسلم». فزمجر مختار الساطور وهو يجرده من سرواله:

- قلت لك من البداية أن الدخول إليه ليس كالخروج منه. هل تعتقد إننا نضيع وقتنا هنا فى المزاح؟

مضى وقت قصير بعد ذلك قبل أن يرفع الرقريقى صوته بالسباب واللعنات بكل اللغات التى يعرفها: العربية والرقريقية ولغات أخرى مجهولة فى الواحة!

هنا قابلت النساء لعناته بعاصفة من زغاريد التسامح إحتفالاً بخروج الكافر من دينه الوثنى وابتهاجاً بانتهاء مراسم اعتناق كونسا ـ مدير شركة حفر الآبار بواحات فزان القادم من بلاد الرقريق ـ للإسلام.

خرج كونسا من الجامع محطماً، ممتقع الوجه، غائر العينين، ملوثاً بالنزيف والدماء يساعده القاضى ويستند فى مشيته المضحكة على كتف الممرض مسعود، حتى ألقوا به فى سيارة لاند روفر كانت تنتظره خارج السور.

وبالطبع لم ينس مختار أن ينال أجره الدنيوى فدسّ يده فى جيب كونسا وخطف كل ما وقعت عليه هناك: خمسة جنيهات كاملة.

أمّا أجره الدينى فعند اللّه يوم القيامة!

قضى كونسا عدة أسابيع طريح الفراش، يزوره الممرض يومياً ليضمد الجرح ويداوى الجريح بالحقن والعقاقير المستوردة من بلاد ما وراء البحار. أما الرقريقى نفسه فلم يتوقف عن شتم الفقهاء السفاحين وعلى رأسهم الإمام مختار. وروى عن مترجم الشركة (وهو شاب نحيف تعود أصوله إلى مدن الشمال) قوله أن كونسا تطاول وسب الدين بحقد يؤهله لأن يعود إلى دنيا الكافرين ويحتل مكاناً مرموقاً فى جهنم بين معشر النصارى والمتنصرين. أما كبير الخبراء ماريوس فلم يخف امتعاضه من عملية الختان وقيل فى المعسكر أنه تشاجر مع رئيسه ونابزه بألقاب التحقير وقال للمترجم غاضباً وهو خارج من حجرة كونسا: «كونستانتيس باع روحه لشيطان المسلمين فى سبيل امرأة رخيصة. أوه يا إلهى ما أبخس الثمن!». ثم تدفق لسانه بسيل من الرطانة التى فهم جميع الحاضرين من السائقين والعمال والمستخدمين من الأهالى أنها لا يمكن أن تعنى غير أقذع أنواع السباب!

إستمر كونسا راقداً على ظهره، صارخاً بالشتائم التى تمس الدين الجديد. وقد ولع بهذه العادة عندما يتحامل على نفسه ويمشى فى العراء لقضاء حاجته

فيسمعه كل المعسكر وهو يئن ويتوجع قبل أن يرفع صوته باللعنات والشتائم.

ما لبثت هذه الروح العدوانية من كونسا أن وصلت مسامع الشيخ غوما فبعث للرقريقى بوصية قاسية ينصحه فيها أن يبلع لسانه ويكف عن استفزاز مشاعر المسلمين إذا أراد ألّا يبتروا عضواً آخر فى جسمه ويقطعوا لسانه من منبته ـ على حد تعبير الشيخ ـ فخفف كونسا من التلفظ بالشتائم واكتفى بالتأوهات الأليمة كلّما اضطر أن يزحف إلى العراء المجاور لمملكة الجن كى يقضى حاجته!

تعافى فزاره القاضى.

شرب كوباً من الشاى الخفيف فى كوخ كونسا الخشبى ثم مد سبابته فى وجه الرقريقى وقال محذراً: «قلت لك أن تكف عن التطاول على دينك الجديد لأن ذلك يعنى الزندقة. كما لا يفوتنى أن أذكرك مرة أخرى بأن عقوبة الزندقة عندنا هى جز الرأس. أنصحك أن تغلق فمك جيداً إذا أردت السلامة!».

فنهض كونسا بقامته القصيرة وجسمه المكتنز المضحك ووضع كلتا يديه على فمه قاطعاً بهذه الإشارة على نفسه عهداً ألا يمسّ الدين بكلمة فى المستقبل. فلانت أسارير القاضى وأعلن باسماً أن الباب مفتوح أمامه الآن لقراءة الفاتحة والدخول على زهرة وغير زهرة على سنة الله ورسوله!

(6)

عند قيام الإمام بتلقين الرقريقى لحفظ سورة «التوحيد» بعد الفاتحة احتد النقاش وخالفه عدد من الفقهاء الرأى وقالوا أن آية الكرسى أهم للرومى خاصة وأنه يتخذ من الجان جيراناً له، فاعترض مختار الساطور وأصرّ على أهمية سورة «التوحيد» بالنسبة لأمثاله من الداخلين فى الإسلام الحديثى العهد باعتناقهم لدين الحق. وبرر ذلك بسببين اثنين: أولهما: يرجع إلى مضمون السورة الذى يدحض تصورات النصارى وخرافات المجوس حول تعدد الألهة. ويقدم بما لا يدع مجالاً لشك الدليل القاطع على وحدانية اللّه سبحانه. وثانيهما: وقائى. فربما خطر ببال هذا الداهية أن يتراجع فى إيمانه بمجرد أن يقضى وطره من زهرة ويعود إلى دينه

القديم مسلحاً بأخطر آية فى القرآن الكريم تعتبر حكراً على التقاة والسحرة المتخصصين فى مصارعة فريق الكفرة من الجان.

ولهذا رأى مختار ـ من باب الإحتياط ـ أن يحيط آية الكرسي بالكتمان ريثما يتحقق من نوايا ابن الروم هذا! وفى سبيل إقناع الفقهاء دعم الإمام رأيه ببعض الأمثلة المتوارثة من الأولين تحكى قصصاً مثيرة عن نصارى جاؤوا إلى الواحة بحثاً عن الذهب والجثث القديمة وتظاهروا باعتناق الإسلام ولبسوا الجبة ووضعوا على رؤوسهم العمامات والعصابات تشبهاً بمعشر المسلمين حتى إذا عثروا على ضالتهم فى الأقبية السفلية تحت الجبل وجد الناس لباس المسلمين المقدس ملوثاً بالروث والبراز وبين طياته ترقد أوراق كتبت فيها عبارات فظيعة تسخر من دنيانا وديننا فى حين يكون هؤلاء السفلة قد ابتعدوا عن الواحة بمسافة تضمن لهم النجاة من القصاص!

أمام هذه الحجج القاسية لم يملك الفقهاء إلاّ أن يقنعوا برأى الساطور حتى لا يتحملوا مسئولية أفعال كونستانتيس إذا أصاب الإمام فى شكوكه وخطر للزنديق أن يرتد لسبب من الأسباب، فضمن مختار النصر وأخفى آية الكرسى بعيداً فى قلبه وفتح المصحف على سورة التوحيد وقرأ وهو يترنح يميناً ويساراً داعياً الرقريقى لأن يردد خلفه: «بسم الله الرحمن الرحيم. قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفؤاً أحد.».

فيردد كونسا خلفه بكسل وبلهجة لا تخلو من الملل والضيق ناطقاً الكلمات باعوجاج، محولاً حرف الـ «ق» إلى «ك» فيقول: «كول» بدل «قل». فيعيد الإمام ويحاول أن يقوّم لسانه ويصلح إعوجاج لغته قائلاً: «لا تقل كول وإنما قل!» فيردد المسكين خلفه محمر الوجه: «لا تاكل كول وإنما كول». فيغضب الساطور ويهدده بسبابته ويحذره من مغبة تحريف القرآن لأن عملاً كهذا سيعرضه لعقوبة الجلد بسوط حار لا يقل قساوة عن سوط الشيخ غوما. ولكن كونسا يعجز عن جعل لسانه يستقيم فيعيد الكلمة بلفظ أكثر ركاكة فيضرب الإمام كفّاً بكف ويقول مسلماً أمره للّه: «حقاً

ما يقال: لا سبيل إلى تقويم ذيل الكلب. وضعوه فى قصبه أربعين شهراً وعندما نزعوه على أمل أن تكون المدة كافية لجعله يستقيم وجدوه قد عاد إلى اعوجاجه!».
ثم ينهض ويخفى إنفعاله بالتكبير للصلاة.

قبلها استطاع الساطور أن يلقن الرقريقى سورة الفاتحة بجهد جهيد. أمّا الصلاة فدربه على السجود والخشوع والركوع قبل أن يحفظ حتى الفاتحة نفسها، ولما وبخه زملاؤه الفقهاء على هذه البدعة أجاب أن كل عمل يفيد فى تعويد النصرانى وترويضه على ممارسة شعائر الإسلام هو عمل محمود ومشروع ولا يتعارض مع الشريعة. وكم مرة شاهدوهما يقفان فى خشوع (الإمام فى المقدمة ويليه كونسا مبتعداً مسافة ثلاث خطوات) ميممان شطر القبلة، يستغرق مختار فى قراءة القرآن بصوت مسموع صالباً يديه على صدره فى حين ينتهز الرقريقى اللعين الفرصة فيحشو أصبعه فى أنفه أو يهرش رأسه أو عجيزته أو حتى يلتفت يميناً ويساراً برغم أن الإمام كثيراً ما نهاه عن ذلك ودعاه لأن يتخلى عن هذه العادة السيئة محاولاً ـ عبثاً ـ أن يضع فى رأسه أنه لا يقف فى محراب الكنيسة وأن هذه الحركات من شأنها أن تبطل الصلاة. ولكن ابن الروم لم يستطع ـ برغم كل جهوده المخلصة فى هذا السبيل ـ أن يلتزم حرفياً بالتعاليم الإسلامية المشددة بشأن طقوس الصلاة مستغرباً كيف يمكنه أن يمنع نفسه من أن تأتى بحركة طبيعية كأن يهرش رأسه أو يمسح ذقنه أو يبصق خلفه فهدّده الساطور بسبابته وعيناه تشتعلان بجنون الإستنكار والغضب «إيّاك! إيّاك! ثم إيّاك!».

هذا بشأن المران على تأدية فريضة الصلاة.

أمّا مراسم العرس ففاقت ببساطتها كل الطقوس الدينية السابقة. ولم يصدّق كونسا نفسه وهو يتربع على الكليم ويمسك بيد عروسه الشرعية ليلة الدخلة دون أن يضطره الفضوليين أن يتسلل إلى بيتها تحت ستار الظلمة مغامراً بالقفز من النوافذ العالية!

عادت له الثقة بنفسه حتى تجرأ وقرر أن يبحث عن مكان مناسب يقضى فيه

شهر العسل مع عروسه الجميلة متحدياً بذلك مشاعر الأهالى معلناً بهذه النية تمسكه الضمنى بعادات النصارى وتمرده على تقاليد المسلمين . وبرغم الاستنكار الذى رآه فى عيون السكان إلا أنه أجلس زهرة بجواره فى اللاندروفر وداس على البنزين وتوجه إلى الصحراء الواقعة غرب جبل الحساونة جنوب الحمادة الحمراء لقضاء شهر العسل والبحث عن الغزلان الطائشة!

هنا عض ثلاثة أرباع الرجال فى الواحة بنان الندم وأيقنوا أن العصفور الرشيق قد أفلت من بين أيديهم إلى الأبد ولم يعد باستطاعة هؤلاء المنافقين الملتحين الناهين عن الفشاء والمنكر بالنهار المتسللين إلى بيتها بالليل وهم يتأبطون قلل اللاقبى - لم يعد باستطاعتهم أن ينعموا في المستقبل بدفئها وحنانها بعد أن جاء هذا الكافر الجنى لينسج خطته متستراً باعتناق الإسلام كى يختطفها من بين أيديهم إلى الأبد، فتحسروا كثيراً وشتموا الرقريقي وحقدوا عليه ، حتى أصبح ليس من الصعب على المراقب أن يرى التوتر والكآبة والضيق بادية فى عيونهم وتصرفاتهم وعلاقاتهم ببعضهم فتملكتهم الوحدة والوحشة والفراغ.

ولما كان يوجد لكل شىء بديل فقد وجد البديل حتى لزهرة!

احتلت رحمة محلّها .

وهى امرأة استطاعت أن تمهّد لاحتلال هذه المكانة المرموقة من زمان علاوة على ما تملكه من مؤهلات الجمال وسوء السمعة أشبعتها الألسن فى الواحة بالتناول والتعليق منذ أن عادت من واحات الشمال مطلقة من زوجها الأول لأسباب قيل أنها أخلاقية!

وقد تنازعت هذه المرأة الحاذقة آيس مع زهرة فى وقت من الأوقات واشتد هذا النزاع بين المرأتين بعد خلاص حفيد الشيخ غوما من باتا طمعاً فى الاستيلاء على الفتى والزواج منه . وبلغ الصراع بينهما أن تشاجرتا بالأيدى والأظافر فى معركة نشبت فى الحى القديم حيث التقيتا فى حفل زفاف ونشاتما بأقذع الألفاظ على مرأى ومسمع من جموع الرجال والنساء الذين نسوا العرس واكتظوا

يتفرجون على المشهد المثير . وقد تطوّع فضل اللّه درهوب وأخبر صديقه بكل التفاصيل فى اليوم التالى وهو يتلوّى ضاحكاً فما كان من آيس إلا أن هجرهما كلاهما معاً فنجح فى الامتحان وفاز بمباركة الشيخ غوما الذى بعث له مع الشيخ آهر بوصية تقول : «لا يضير الرجل الحقيقى أن يمر فى رحلته بمعشر النساء ويكتوى بجحيم المرأة ولكن العبرة أن يختار الوقت المناسب كى يعبر هذا الجحيم إلى الجانب الآخر!» .

ساعده الإفلات من زهرة والتخلّص من رحمة طريقه الجديد الذي لم يعد يمر على بيت زهرة فى الزاوية تحت الجبل وينحرف منحدراً حتى يسلّمه بين يدى رحمة أسفل المنحدر فى السهل المنبسط ولكنه أصبح يخترق سلسلة البيوت المصطفة شرق الجبل ويعبر الغابة إلى المستوطنة أقصى الجنوب الشرقى ، فحمد اللّه الذى أنقذه من إحراجات رحمة وهى تمضغ اللبان وتعترض طريقه إلى البيت قائلة : «أنا لا أخفى ثعباناً فى خريج التمر يا آيس؟ لا تخف فإن الثعبان لن يلدغك فى بيتى» فيحمر وجهه خجلاً ويستنجد بفضل اللّه فيكتفى الأخير بأن يتلوى إلى الأمام ويستلقى إلى الخلف ضاحكاً تعبيراً عن شماتته .

هجر الفاتنة زهرة أيضاً ، فتنفس الصعداء وقال فى نفسه : «يكفى . هذا شرّ لا بد منه ولكن يكفى . علّ العجوز المرحومة ترضى عنى فى قبرها وهى ترانى أسلك الطريق المستقيم» . فكسب رضى كلا العجوزين : جدّه غوما فى الدنيا وعمته الزنجية فى الآخرة.

ولكن آيس تذكر ـ وهو يتخذ هذا القرار ـ ذلك الموقف الحزين عندما مشت العجوز خلفه عند خروجه من البيت ولجوئه إلى باتا محاولة أن تثنيه عن عزمه حتى يئست فوقفت وسمع صوتها المتعب يخرق سكون الصباح وهى تردد وراءه : «اذهب يا آيس فليس أمامك إلا الضياع» فوقف ودسّ رأسه فى حقيبة كتبه وبكى بمرارة . ثم لعن الشيطان الرجيم وذهب إلى قبرها وقرأ على رأسها الفاتحة معلناً توبته بين يدى رفاتها الرميم.

أما رحمة فبدأت تدرّب نفسها على استقبال الرجال وفتح باب المنافسة لنشاط زهرة بمجرد أن يئست من استدراجه إلى بيتها . وما زالت تلك الفتنة التى نشبت بين أحد المدرسين الغرباء ورجل من أبناء الواحة مثار تعليقات وجدل فى الواحة عندما حددت لكليهما موعداً لزيارتها فى وقت واحد فالتقى الرجلان وفوجئا فتقاتلا بالأيدى فى البداية ثم تطور الأمر فمزقا وجهى بعضهما بالأظافر والخناجر . ولم تخجل الفتاة الشريرة من أن تبرر مكيدتها ضد الرجلين الشقيين فقالت أنها أرادت بهذا العمل أن تضع مواهبها الأنثوية على محك الاختبار . مكث الأستاذ عامر دلدول بعد هذه الحادثة المشينة أياماً فى البيت الملاصق للمدرسة المخصص لإيواء المعلمين القادمين من مدن الشمال ، ورقد فى الفراش بضعة أسابيع مضمد الوجه والأطراف يتردد عليه الممرض مسعود بين الحين والآخر.

ولكن الجراح ـ برغم خطورتها ـ لم تمنع هذا المغرور العنيد من أن يستدعى فضل اللّه ويعطيه ورقة زرقاء أخفاها أمامه بعناية داخل مظروف قديم وطلب منه أن يسلّمها لأخته .

لم يستغرب فضل اللّه أن تبلغ الشجاعة بالمدرس الجريح حدّاً يمنح فيه الأخ خطاب غرام لأخته بسبب السوابق التى مهّد بها عامر لكسب ودّه وضمان صمته . إذ لاحظ الصبى منذ شهور اهتمام دلدول به ومثابرته على مساعدته فى حل عمليات الحساب وتقويم لغته فى مادة الإنشاء حتى أنه غض الطرف متعمداً ليترك له المجال كى يغش فى الاختبار وينقل الأجوبة من صفحات الكتب أو دفاتر الزملاء.

ذهب فضل الله الخبيث إلى الربوة المطلة على بيتهم وفتح المظروف وقرأ اعتراف المدرس الجريح لرحمة بالغرام والهيام غافراً لها سوء التفاهم الذى حدث مؤكداً استعداده فى خوض غمار عمل بطولى أكبر إذا تطلب الأمر فغرق الولد اللعين فى الضحك حتى ترقرقت عيناه بالدموع ثم نهض ونزل الربوة وسلّم الرسالة لرحمة.

لم يهدأ اللغط حول المشاجرة الأولى حتى تورط عامر دلدول بمجرد أن تماثل

للشفاء فى مناحرة أخرى أشرس من سابقتها مع الفلاح المغامر المرح سليم الدندانى فاقتيدا معاً إلى نقطة البوليس وأجرى معهما تحقيق عاجل مراعاة لخطورة جراحهما فقدّم عامر بهذه المعركة الوحشية دليلاً بطولياً آخر يرضى كبرياؤه أمام محبوبته ويعزيه فى آلامه حتى أن ابتسامة استخفاف رفت على شفتيه أثناء التحقيق أدهشت الضابط ورأى أنها لا تناسب الدماء التى تغمر وجهه وملابسه ويديه علاوة على أنها تشكل تحدّ صارخ لجلال القانون .

أمّا سليم الدندانى فقرر أن يحتكم إلى عدالة الجن فذهب إلى الغابة وضمد جراحه بنفسه واحتسى ما وقع تحت يده من اللاقبى وركب حمارته وذهب إلى مستعمرة العالم السفلى ورقد فوق الرماد أملاً فى أن يشفق أصدقاؤه على حاله ويدعوه للمثول بين يدى ملكهم الجليل ليشكو له المعلم القادم من الشمال الذى أفسد الملاك رحمة واستولى على قلب الفتاة بعد أن أغراها بالمال . كان الفلّاح يطمع فى قرارة نفسه أن يعطفوا عليه هناك فى ردهات القصر المنيف المكتظ بالجوارى والحسان ويمنحوه بعض القطع الذهبية التى ستساعده فى الصمود بوجه المدرس الغريب واسترداد قلب رحمة فرفع يديه فى الظلام وهو يتوسد الرماد ويتأهب للنوم وطلب من الجن بصوت عال أن يهبوا لنجدته . ولكن أصدقاؤه خذلوه هذه المرة . فبدل أن يدعوه لزيارة القصر ويقيموا على شرفه الولائم الفخمة ـ كما حدث فى المرة الماضية ـ دسوا له فى كمه أفعى رقطاء لدغته فى الليل وهو نائم ولم يأت الصباح حتى وجده مستخدمو شركة حفر الآبار فى المعسكر المجاور مستلقياً على ظهره ، مسود الملامح محتقن الوجه ترف على شفتيه ابتسامة غامضة وقلة اللاقبى الفارغة منصوبة على رأسه كأنها حجر المقبرة . تحسسوا أطرافه الباردة وجسوا نبضه فوجدوا أن الفلاح جثة هامدة . ولم يعرفوا السبب إلاّ عندما وجدوا أثر الأفعى على الأرض بعد أن انسحبت من المكان بمجرد أن انتهت من المهمة التى أرسلت من أجلها!

قال الكثيرون فى الواحة : «هذا جزاء الطماعين . انتزع من بين أيديهم حلقة

ذهبية فى المرة الماضية فسولت له نفسه أن يستولى على المزيد . ما كل مرة تسلم الجرة!» .

الشيخ غوما علّق على حوادث التناحر الليلية محاولاً أن يعطى الأمر بعداً عامّاً : «إذا تنازع الرجال فى الليل فأعلم أن وراء الشجار امـرأة . فى النهار يتشاجرون على الأراضى وتوزيع حصصهم من مياه عين الكرمة . أما فى الليل فلا يوجد سبب غير المرأة!» . أيده الحاضرون وهم يختلسون النظرات إلى بعضهم .

فى تلك الأثناء عاد أبو رحمة من عمله فى الواحات الشمالية فاستقبلته الأقاويل المسموعة والأصوات الهامسة وأغرقتـه فى الخجل . دار بين معـارفه وأصدقائه وهو يتساءل كالدرويش : «هل صحيح ما يقال من أن الملعونة قد شوهت سمعتى فى غيابى ومرغت لحيتى فى التراب؟» فلم يستطع أن يجعل هؤلاء ينطقون بالحقيقة . تذبل وجوههم وينكسون رؤوسهم وهم ينشغلون بمسح العرق المتدفق على جباههم فأيقن بالحدس أن الأمر ليس على ما يرام . إستجوب فضل اللّه فزاده الولد حيرة بابتساماته البلهاء وإجاباته البليدة فتوجه إلى الدار وربط ابنته بحبل مفتول من الليف الطازج إلى ضلفة الباب الضخمة وتوكل على الله وهجم عليها بالضرب .

بدأت عملية الضرب بعد صلاة المغرب ولم ينته العجوز من عمله إلاّ فى آخر الليل عندما سقط على الأرض وهو يلهث من التعب بعد أن استعمل يديه ورجليه وحزامه الجلدى وكل ما وقعت عليه عيناه فى الدار . قال بأنفاس متـلاحقة : «المجرمة . الشريرة . دستى على سمعتى ومرغتى شرفى فى الـوحل يـا بنت الكلب!» ولكن الفتاة العنيدة ترفع نحوه وجهاً مزداناً بالكدمات وتسدد نحوه نظرة حقودة ظافرة دون أن ترد على لغة أبيها الاستفزازية!

فى الصباح أيقظ الوالد فضل الله مبكراً وقال له أنه سيتوكل على اللّه ويغرب بوجهه عن الواحة . لقد قرر أن يهاجر وطلب منه أن يلحق به عند انتهاء المدرسة فى العطلة الصيفية فأعلن الولد موافقته دون حماس.

فى الليل سمعه ينتحب بحرقة وفى الصباح حزم أمتعته وسافر فنسى فضل اللّه الحوار الذى دار بينهما فوراً.

(7)

رافق كونسا فى رحلته الصحراوية مترجم الشركة مذهوب السردوك والسائق مغرى ابن الصحراء وخبير البيداء الذى جلس بجوار المترجم فى مقدمة اللاندروفر السابحة فى الفراغ المنبسط مثيرة خلفها ذيلاً طويلاً من الغبار فيغمر السيارة الخلفية ويحجب الرؤية عن كونسا بنظارته الذهبية فيغتاض ويلعن السردوك بالرقريقى ويدوس على البنزين ويسابق اللاندروفر الأمامية ويتجاوزها ليغرقها بزوبعة الغبار فتصفق زهرة وتهلل فرحاً وابتهاجاً. ولكن السيارة الخلفية سرعان ما تنبهه بإشارات ضوئية متتالية إلى أنه ظل الطريق ولا يسير فى الصراط المستقيم فيوقف سيارته ويلتفت إلى اللاندروفر التي يقودها السردوك ويصبّ على رأس مغرى نصيبه من الشتائم بعربية ركيكة ثم يبصق على الأحجار السوداء المشتعلة ويدوس على اللاندروفر منحرفاً نحو اليمين متقفياً أثر الجماعة.

يطيب لكونسا فى هذه الرحلة الشيقة أن يدندن بأغنية رقريقية أو بترويض لحن مرزكاوى قديم فتبتسم زهرة وتشد أزره فى اللحن مقومة نطقه مصححة له تحريفاته للأغنية حتى تقفز مقلتاه من محجريهما ويهتف مشيراً إلى الفراغ المترامى أمامه فى تحدّ : «غزال! هذا غزال!» فتضحك عروسه وتصحح معلوماته : «هذا ليس غزالاً! هذه عشبة تعوم فى السراب!». ولكن كونسا لا يصدقها حتى يقترب من العشبة فتنحسر عنها المياه الفضية اللعوب ويبتعد شاطىء البحر فتتقلص أرجل الغزالة الرشيقة وتنكمش رقبتها الطويلة النحيلة الهيفاء وتتكوم على نفسها وتتحول إلى شجيرة برية صغيرة تتضوّر لهفة للماء وتجاهد لاتقاء سياط الشمس النارية!

يرمق كونسا زوجته بنظرة خجولة تعبر عن اعتذاره فى جهله بطبيعة الصحراء واعتذاره على تسرعه ولكنه لا يلبث بعد قطع مسافة قصيرة أن يهتف مرة أخرى : «غزال! هذا أكيد غزال!» فتحدجه زهرة من تحت رموشها الطويلة وتخيب أمله

مبتسمة : «هذا ليس غزالاً . هذا حجر واقف!» . تلتهم اللاندروفر الأرض وتنهب المسافات وتسبح فى العراء وتقترب من «الغزال» المزعوم فيكتشف كونسا أن تصوراته عن الصحراء فظيعة وبدائية والحجر الأملس الطويل يقف وحيداً رشيقاً فى ذلك الخلاء الموحش ويقدم له الدليل على هزيمته للمرة الثانية فى مباراته مع زهرة فى اكتشاف الصحراء برغم ذلك لم يستسلم كونسا فى بحثه عن الغزلان الأسطورية .

استمرّوا يتسابقون فى الفيافى الأبدية ويدوسون على البنزين ويتبادلون الجلوس خلف المقود ويتوقفون لإطفاء العطش والتقاط النفس ليعودوا إلى كراسى اللاندروفر لينطلقوا لالتهام العراء بآلاتهم الجهنمية التى تخرق الصمت العميق بهدير محركاتها الجنونية.

قضوا ليلتهم الأولى دون صيد فاضطرت العروس أن تقدّم لهم معلبات التن والسردين ورغيف خبز التنور على العشاء . وفى الصباح استيقظ مغرى والسردوك على هدير اللاندروفر مع مطلع الشمس ووجدا كونسا ينهمك فى تدريب زهرة على قيادة السيارة فتندفع إلى الأمام فى سرعة جنونية ثم تنحرف على اليمين بحدّة حتى توشك أن تنقلب رأساً على عقب مثيرة غباراً كثيفاً، ثم تتضاحك العروس وتدوس على البنزين من جديد فتنطلق اللاندروفر نحو الفراش حيث يرقد مغرى والسردوك فيقفز أحدهما إلى الشرق ويفر الآخر إلى الغرب وهما يهمهمان بشتائم لا تليق بذلك الوقت المبكر الساحر من صباح الصحراء.

ثم يفترشون الأرض ويتقرفصوا على مائدة الفطور ليتناولوا البسكويت ويحتسوا أكواب الشاى لتبدأ الرحلة من جديد ولكن مغرى لم يصب الغزالة الشاردة من بندقية الخرطوش إلا فى اليوم الرابع.

كانوا قد بلغوا مرتفعات الحمادة الحمراء الجنوبية فظهرت الغزالة فى الأحراش اليابسة فى السهل ومرقت أمام السيارة وهى تخرق الفضاء بقفزات رشيقة سريعة كالسهم ولكن الصياد الماهر ابن الصحراء أصابها ببندقية الخرطوش ببساطة أدهشت زميله السردوك وأذهلت الرقريقى فأغدق عليه بالثناء وهو يقف على رأسه

ويراقبه وهو ينشغل بسلخ الشاة المعلقة من رجليها الرقيقتين فى اللاندروفر حتى أن كونسا لم يصدق أذنيه وهو يستمع إلى المفاجأة التى خبأها له خبير الصحراء الداهية . قال مغرى وهو يأخذه من يده ليفرجه على المفاجأة ويزف له البشرى فى قاع السهل :

ـ هل رأيت هذه الآثار؟ إنها قطيع كامل لجأت إلى المرتفعات هرباً من بنادق الصيادين.

صمت وأضاف بلهجة ذات معنى :

ـ هرباً من بنادقنا الجشعة!

هزّ كونسا رأسه علامة الموافقة واستمر مغرى :

ـ إنها تنزل السهل وترتع فى الوادى لتتغذى على العشب فى أوقات معينة .

رمق الرقريقى بنظرة سريعة وختم كلامه :

ـ أنا أعرف هذه الأوقات . أقترح أن نقضى ليلتنا هنا .

وافقه كونسا صامتاً.

كان يفكر فى كلام البدوى الحكيم.

قبل الغروب عاد البدوى من جولة فى المنحدرات المجاورة وجلب معه ترفاسة بيضاء ضخمة جفّ نصفها العلوى المعرَض للشمس فانتهزت الطيور الفرصة ونقرت نصيبها من الترفاسة المغرية . ولما كان رفاقه يجهلون الترفاس بل ولم يسمعوا بمثل هذه الثمار التى تجود بها الأرض فى المواسم الممطرة فقد اضطر أن يشرف على إعدادها بنفسه . غسلها جيداً وقطعها إلى أجزاء صغيرة وسلقها وقدمها على العشاء بعد أن أضاف عليها قليلاً من الزبد والملح . فما أن ذاقها ابن الروم حتى طار عقله من المتعة وردد فى خشوع :

«هذه نبتة أسطورية» ثم وقف ورقص على رجل واحدة بضعة دقائق . رفع يديه إلى السماء وقرأ من «الأوديسة» كأنه يبتهل إلى اللّه : «كل من ذهب إلى ليبيا

وذاق طعم اللوتس ينسى أهله ووطنه ويقيم هناك إلى الأبد» .

انتهى من قراءته المسرحية فالتفت إلى الجماعة وقال بلهجة لم تتخلص من تأثير الممثلين :

ـ هو ميروس . تذكرت الآن أن اللوتس الخرافى لا يوجد إلاّ فى هذه البلاد!

اقتعد الأرض ومد يده ليتناول قطعة أخرى من الترفاس . قال :

ـ لا شك أن جدى مدفون فى مكان ما هنا . سحره اللوتس وأغراه لحم الغزال فنسى وطنه وتنكر له.

لم يفهم أحد بالطبع من هو هوميروس ولا ما هى «الأوديسة» فتذكر كونسا كلام أستاذه عندما كان يدرس الجيولوجيا في جامعة كريت . قال المعلم الحكيم وهو يذرع قاعة المحاضرات بقامته الطويلة وجسمه النحيل : «لا أتصوّر إمكانية دراسة أى علم من العلوم التى لها علاقة بالعالم القديم دون قراءة عميقة لهوميروس . هذا ينطبق على الجيولوجيا كما ينطبق على الأرخيولوجيا أو الديموغرافيا أو التاريخ أو أى علم آخر . هوميروس أولاً . أنصحكم أن تقرأوا هوميروس قبل كل شىء!» .

وكلما توغل فى الحياة وتقدم به العمر واكتسب خبرة جديدة كلما تذكر نصيحة هذا المربى وازداد إيماناً بها برغم أنه انضم فى ذلك الوقت لجوقة زملائه اليافعين المغرورين وسخروا من الأستاذ وأمطروه بوابل من التعليقات والدعابات. وذهب بعض المتطرفين من الطلبة إلى أبعد فقالوا ساخرين: «إذا كانت علاقة هوميروس حميمة بالجيولوجيا إلى هذا الحد فلا يضير شيخنا المهيب هيرودوت أن يكون مؤسساً لعلم الميكانيكا إلى جانب أبوته لعلم التاريخ!» .

لا شك أنهم مثله الآن يسخرون من أنفسهم ويحتقرون جهلهم بالحياة والعلوم والمعرفة بعد مضى كل هذا الوقت الذى تجرعوا فيه تلك الكؤوس المريرة التى اصطلح على تصميتها بـ «التجربة» و «الخبرة» و «الممارسة» وغيرها من السياط الأليمة!

وها هو طعم الثمرة العجيبة يدفع به إلى الماضى السحيق ويغمره بإحساس غامض يؤكد له قائلاً : لقد تذوقت هذا الطعم وأكلت هذه الثمرة يوماً ما فمتى وأين كان ذلك؟

هنا وجد كونسا نفسه يعود إلى الأرض من رحلته السحرية إلى عالم ما قبل التاريخ ويداعب خصلات عروسه المنسكبة فى شقاوة على عينيها الجميلتين ويتمادى فى المداعبة فيمد أصابعه يقرصها فى أذنها أمام رفيقيه الخجولين اللذين قاما على الفور للتجول فى الخلاء والتمتع بالغروب البديع.

ركع فى مواجهتها وقال لها أنها لطيفة ورقيقة وتنافس «مور» فى الجمال والوداعة! وعندما لعبت الغيرة برأسها ورفعت حاجبيها متسائلة عن «مور» السعيدة الحظ قال لها أن «مور» مجرد قطة. قطة فارسية التقطها منذ ثلاث سنوات من مرفأ الجزيرة وربّاها ورعاها حتى كبرت وترعرعت ونبت لها الشعر الأكرث فوق رأسها وأصبحت قطة فريدة من نوعها تتربع على عرش أجمل قطة فى كريت كلها. وقص لها أيضاً كيف أكلت الغيرة قلب ماريا زوجته فانتهزت غيابه عن البيت وأخذت القطة ودستها فى سلة صغيرة ألقت بها فى صندوق القمامة ولكن القطة عادت بعد يومين وأيقظته فى منتصف الليل وهى تطرق الباب بمخالبها. وختم كلامه قائلاً أنها قطة أليفة وموهوبة ولطيفة المعشر ففازت بغيرة ماريا وحقدها على الفور. فادعت بالباطل أنه يغدق عليها بالحب بسخاء يفوق حبه لابنته «دورا» وكان الأجدر به أن يوزع مشاعره بينهما مناصفة على الأقل، لأن دورا تحتاج أيضاً إلى حنان الأب، وقال كونسا فى قصته أن ماريا بكت وقالت أنها تتنازل عن حصتها فى مشاعره لدورا لأنها لم تعد تطيق أن ترى الأب يهدهد قطة فارسية ويمنحها كل حبه واهتمامه وتبقى الطفلة المسكينة مهملة فى الزاوية كاليتيمة.

ومضى كونستانتيس يسرد قصته فقال أن سرّ حقد ماريا على القطة راجع إلى أصلها الفارسى لأن ماريا ورثت عن جدّها حقداً تاريخياً على الفرس تعود أصوله إلى حروب ما قبل الميلاد.

داس نظارته الذهبية على أرنبة أنفه منهياً محاضرته التى لم تفهم منها زهرة شيئاً باستثناء حنينه المدهش لقطة مجعدة الشعر اسمها «مور» .

هبط مساء رطب تتخلله هبات منعشة متقطعة لنسمات الشمال المحملة بمياه السحب التى تتزاحم وتحشد صفوفها فوق البحر البعيد استعداداً لشن حملاتها الموسمية ضد مدن السواحل المحظوظة!

جاء السردوك بأكوام الحطب وأشعل النار فى حين إنهمك مغرى فى عجن الدقيق لتحضير خبز الملّة .

بعد قليل عبقت الصحراء برائحة الشواء.

لحم الغزال مشوياً ألذ طعماً منه وهو مسلوق.

النكهة الأسطورية فى اللحم جعلت كونسا يشعر بالدوار .

بالغ مغرى فى العناية بالطعام وأصر أن يريهم كيف يمكن تقديم أشهى المأكولات بمساعدة أدوات بدائية: الأرض والنار. فدس قطع من الترفاسة ـ التحفة تحت الرماد بجوار رغيف الخبز وقدمها على المائدة مشوية أيضاً فطار رأس الرقريقى وأغدق على مغرى بالثناء إعجاباً بمهارته ثم استلقى على ظهره فوق الأديم متعباً وراقب مظاهرة النجوم اللامعة موبخاً نفسه على جهله بهذه القارة العظيمة المجهولة التى يطلق عليها فى كتب الجغرافيا : الصحراء الكبرى .

طعم الترفاس والغزال المشوى نقله إلى العالم الذى تحدث عنه هوميروس فى «الأوديسة» وقال فى نفسه أن أجداده على حق عندما ذهبوا إلى ليبيا وأقاموا فيها إلى الأبد ونسوا أهلهم ووطنهم بعد أن ذاقوا طعم الترفاس.

بدأت الصحراء تأسره بسحرها وغموضها.

* * *

فى الفجر استيقظوا مفزوعين على دوى الطلقة من بندقية الخرطوش الوحشية .

تسابقوا إلى الوادى فى عتمة الفجر فانطلق دوى آخر . فى قلب السهل ، بين أحراش النباتات البرية ، وجدوا مغرى وقد لحق فأصاب شاتين ، باشرفى نحر أحداهما فى حين ظلّت الثانية تنتفض على بعد أمتار فى الظلمة.

وقف كونسا على يمينه وهو يفرك عينيه الناعستين ووقف السردوك على يساره فصاح مغرى فيهما :

ـ هيّا ساعدانى! تتفرجان علي والغزالة الثانية تشرف على الموت جيفة!

هجما فى العتمة على الشاة المسجاة بين يدى مغرى وأمسك كونسا برأسها فى حين أحكم مدهوب على قوائمها بكلتا يديه . مسح مغرى السكّين الملوث بالدم على وبر الغزالة الناعم وانتقل إلى الشاة الثانية . جرّ السكين على رقبتها فتفجر الدم من نحرها بغزارة . هرع مدهوب لمساعدته ولكن كونسا لم يستطع أن يقاوم أكثر فهاله منظر الدم والتفت خلفه وشرع يتقيأ بصوت عال جاثياً على ركبتيه فى الوادى المعتم.

(8)

عقب عودته من تلك الرحلة قرر كونستانتيس أن يكتشف أسرار الحضارات القديمة ويغزو خفايا الصحراء الكبرى فكتب إلى ماريا رسالة كى تزوده بمصادر قدماء المؤلفين والمؤرخين من يونان ورومان منفذاً نصيحة أستاذه الحكيم فى الاهتداء بمشعل هوميروس حتى فى الجيولوجيا!

تناول كراساً مدرسياً رمادياً مليئاً بالملاحظات عن طبقات الأراضى الليبية وانتزع منه بضع صفحات بيضاء طواها بعناية وجلس خلف المقود وقصد المشروع مع الأصيل . تبادل حديثاً مقتضباً مع ماريوس وأصدر بعض التعليمات وتفقد ـ فى جولة سريعة ـ سير العمل وواصل رحلته نحو الصحراء الغربية . توقف فى سهل تحدّه المرتفعات الرملية من الجهة الجنوبية الشرقية وتتوعد بالزحف عليه فى حين تشبثت بعض الأعشاب البرية بالحياة محاولة أن تستجير من أسياخ الشمس بالانبطاح على الأديم والانتشار الأفقى على الأرض.

أحس كونسا نحوها بالشفقة وتأمل جمال الصحراء القاسى بنظرة شاملة ثم عاد إلى السيارة وتناول أوراقه واستظل من الشمس بالسيارة وكتب يخاطب زوجته :

«عزيزتى !

يؤسفنى أن تكون مشاغلى الكثيرة فى الأسابيع الأخيرة سبباً منعنى من الكتابة لك ومعرفة أخباركم . . . » .

هرش رأسه بالقلم وتجول ببصره فى الفضاء الأبدى وخاطب نفسه : «هذه بداية غير موفقة . بداية جافة . مضى شهر ونصف لم أخاطبها بهذه اللهجة . لا . لا . هذا لا يليق! ماريا حساسة! ماريا شاعرة! هذه لغة لا تتناسب مع لهفة زوج عاشق لزوجته الحبيبة التى لم يرها منذ سنة ولم يخاطبها منذ شهر ونصف!» .

اقتنع بخيبته فى التعبير فمزق الورقة إلى نصفين وألقى بها تحت عجلة السيارة . وقف وتناول سيجارة من علبة فى درج اللاندروفر . أشعلها وعاد يحاول ترويض لغته الشعرية الموجهة لماريا :

«عزيزتى الصغيرة!

فى البداية أقبلك وآخذك بالأحضان . قبلى لى دورا والشقى الصغير «مينى» . ولا تنسِ أن تنقلى قبلاتى أيضاً إلى حسنائى الفارسية «مور» راجياً أن تخبرينى فى رسالتك القادمة عن خصلات شعرها الأكرت وجلستها المتكبرة على قائمتيها الخلفيتين عندما يسمح مزاجها المتقلب.

عزيزتى !

أرجو المعذرة على عدم تمكنى فى الأسابيع الأخيرة من مخاطبتكم بسبب الانتقال إلى موقع عملنا الجديد فى واحة «آدرار» فى أقصى الجنوب وتعاظم مشاغلنا وهو أمر تحتمه طبيعة البيئة الجديدة . ولكن بدأنا نستقر ، وحاولت أن أتأقلم فى المناخ الاجتماعى بالواحة . أهل آدرار لطيفون وميالون لربط علاقات الصداقة بالأغراب برغم خرافاتهم الموروثة عن الأجانب من المسيحيين . وهى

معتقدات كونها فى أذهانهم أولئك المبشرين البلهاء الذين تقاطروا على أفريقيا فى القرون الماضية لا حبًّا فى المسيح ولكن طمعاً فى خيرات القارة وبحثاً عن الكنوز والثروات فوجد منهم من تخلى عن دينه واعتنق الإسلام كى يذر الرماد فى عيون السكان المحليين ويكسب ثقتهم حتى إذا مدّ يده إلى الكنز وحالفه الحظ فى الاستيلاء على الذهب نزع العمامة وحرق الجبة وفرّ بالغنيمة إلى سواحل المدن بالشمال ليستقل أول باخرة لعبور البحر إلى الشاطىء الآخر لتستقبله أوربا كأحد الأبطال دون أن يخطر ببال أحد أن هذا المبشر الراهب الذى يتقمص شخصية المسيحى الزاهد ما هو إلا شيطان جشع استخدم المسيحية فى نهب افريقيا وحصل من رحلته على ثروة طائلة !

أم أنك ترين رأياً آخر ؟

لا أخفى عليك اهتمامى الآن بالدين الإسلامي وأكون لك شاكراً إذا ذهبت إلى المكتبة القديمة فى شارع سينيكا وحصلت لى على بعض المصادر التى تتناول الإسلام . ابحثى عن القرآن قبل كل شيء .

كما لا يفوتني أن أخبرك بأن باهتمامي بالصحراء الكبرى قد اشتعل مؤخراً بعد زيارة شيقة إلى بحر العراء المجاور للواحة . وبالطبع سوف تتساءلين كأى أغريقية عريقة وغيورة على حضارة اليونان : ومن يمكنه أن يهتم بالصحراء الكبرى غيرنا نحن أحفاد هوميروس وهيرودوت؟ نعم . نعم . أبعثى لى بهما قبل كل شيء لأعيد قراءتهما جيداً . ابعثى أيضاً بقية المؤلفين اليونانيين والرومانيين(لا تنسى أن الرومان جاءوا إلى هذه البلاد أيضاً وحكموها زمناً طويلاً فرأيت أن استفيد بحكمتهم وآرائهم فى طبائع سكان شمال القارة ابعثى كل من تقع عليه يدك من أولئك القدماء وأخص بالذكر (بعد هوميروس وهيرودوت طبعاً) بلوتارخ ، تيت ليفى ، تاتسيت، وبلينى . . . » .

توقف عن الكتابة ورمى بعقب اللفافة على الأرض . التفت يميناً ويساراً وانكب على الورق يختتم رسالته :

«لا أعرف حتى الآن عما إذا كنت أستطيع أن أتمتع باجازتى هذا العام نظراً لكثافة العمل فى الموقع الجديد وسوف أحاول الإفلات عندما يحين الأوان المناسب. هيا إذن قبلينى وأقبلى قبلاتى لك وللطفلين وللحسناء مور. . ».

ثبت نظارته على أنفه بحركة تلقائية وتفصدت بضع حبات من العرق على جبينه وهو يهيء نفسه كى يختم خطابه بأكذوبة مخجلة . استغفر الرب فى سرّه ورسم إشارة الصليب على طريقة الكنيسة الأرثوذكسية وكتب بأصابع ترتجف : «المخلص إلى الأبد . كونسا .» . ثم تذكر أنه أشهر إسلامه فرفع يديه ورأسه إلى السماء وتوسل الله فى ضراعة هامساً : «سامحنى يا رب» .

جلس خلف مقود اللاندروفر مقرراً العودة إلى الواحدة . فكر وهو يدوس على البنزين : «آه لو تعرف ماريا ما فعلت ! ستركب البحر على قطعة خشب وتكسر رأسي بأول قضيب حديدى يقع فى يدها! لو علمت بالأمر فلن ينجينى من القصاص حتى لو تدخل أرباب كل الأديان السماوية والأرضية ! رحمتك وشفاعتك يا رب الدينين : المسيحى والإسلامى !

لم يفت مختار الساطور أن يحدثه عن مذاهب الإسلام الأربع بكثير من التفاصيل المملة المعتمدة على الأساطير والخرافات المشكوك فى صحتها . فقرر أن يصحح معلوماته عن مذاهب الإسلام فبحث عن كتاب سمين لمؤلف فرنسى يحمل عنوان «الإسلام فى شمال إفريقيا» فلم يعثر له على أثر . يبدو أنه ضاع أثناء الانتقال من مقرهم السابق فى وادى الآجال . حاول أن يشحذ ذاكرته ويسترجع المعلومات القيمة عن المذاهب والفرق الإسلامية الواردة فى المؤلف ولكن تعدد القصص وتداخل الأحداث والتواريخ والأسماء يجعل استعادتها الآن أمراً معقداً ومستحيلاً .

فكر فى ورطته طويلاً وهو يخرق باللاندروفر الشرهة التموّجات والتجاعيد البديعة التى ترسمها الرياح على صفحة الرملة الذهبية المتماسكة.

* * *

بعد أيام من عودتهم من رحلة الصيد (التى يطلق عليها كونسا شهر العسل) جاء مدهوب السردوك وقال يخاطب مغرى : «يبدو أن الفتنة بين الرقريقيين قد نشبت . العمال يؤكدون أنهم سمعوها وهما يتشاتمان ويتعاركان . أخشى أن تكون المرأة هى السبب» . ويبدو أن السردوك نسى أنه ساهم بنفسه فى صب الزيت على النار وتصعيد الفتنة بينهما عندما اختلى بأمود فى الصحراء وهمس له : «ماريوس حاقد على المدير . قال أن كونسا باع روحه لشيطان المسلمين فى سبيل امرأة لقيطة» مستبدلاً كلمة «رخيصة» بوصف «لقيطة» (وهى أحط كلمة يمكن أن يوصف بها مواطن فى الواحة) فأثار هذا التحريف البسيط جنون زهرة واعتبرت ذلك طعناً فى شرفها فشحنت زوجها ضد ماريوس فتخاصما ونشب بينهما العراك .

مرّ أسبوع قبل أن يتنابزا بالألقاب مرة أخرى ويتطور بينهما الخلاف فى اجتماع عاصف خرج ماريوس على أثره وذهب فى زيارة عاجلة للشيخ غوما فى مقر إقامته النهارى تحت أنقاض أم النخيل وقال له أنه ينوى أن يفشى له سرّاً خطيراً لم يعد ضميره يسمح له أن يكتمه فى صدره . لم يفهم الشيخ فاضطر كبير الخبراء للاستعانة بلغة السردوك لترجمة السرّ إلى لغة الشيخ غوما . قال أن كونسا يتآمر عليه وعلى الحكومة ويصرّ أن يستمر الحفر فى تلك المنطقة التى لا تحمل فى جوفها قطرة ماء واحدة . وتحدث طويلاً عن الجيولوجيا وطبقات الأرض بلغة لم يفهم لا الشيخ ولا السردوك كلمة من مصطلحاتها المعقدة فانتهى ماريوس إلى هذه النتيجة التى جعلت الشيخ فى النهاية يطمئن إلى تقديرات كبير الخبراء وحسن نواياه : «. . . اعترضت منذ البداية على اختيار الموقع ولكن كونسا أصرّ أن نبدأ الحفر هناك . انفقنا المال وضيعنا الجهد واهدرنا الوقت وانتهت مهلة التنفيذ وقارب ميعاد التسليم حسب ما هو مبين فى المادة الحادية عشر الفقرة ب من التعاقد مع المصلحة» قال ماريوس على لسان المترجم مدهوب ثم احتقن وجهه وأشعل سيجارة نفث منها خيطاً من الدخان فى وجه الشيخ وأضاف فى ضيق : «. . أنا أعرف ماذا يريد أن يفعل . أنه ينوى أن يلجأ إلى الغش ويضلل السلطات فيكتب تقريراً يدعى فيه جفاف الينابيع الجوفية فى كل المنطقة فيكسب الصفقة ويستولى على 75% من

القيمة الاجمالية للعقد» . عاد يسحب الدخان من لفافته في نهم ويضيف موتراً : «.. ولكنى أقسمت له أنى لن أضع توقيعى تحت هذا التضليل فأخون ضميرى وأدعم عمليات الغش . أنا اقترح أن نغير الموقع ونجرب حظنا جنوباً.» . أيده الشيخ غوما وأضفى تعديلاً بسيطاً على الموقع عندما حدد المكان : «.. بل فى الجنوب الشرقى» واقتعد الأرض وتناول عوداً ورسم به خريطة دقيقة للنهر السفلى الذى يجرى البحث عن روافده . قال : «.. النهر هنا . ينحرف فى شكل قوس مشدود . يأتى من وادى الآجال ويعبر بحيرات الدوادة فى بحر الرمال ويطل على الواحة من هذه الجهة . وينحرف هنا فى منطقة السبخة فتستولى عين الكرمة على نصيبها من الماء وتستمد ينابيعها منه ، ثم يمضى النهر منحدراً جنوباً ويتفرع إلى روافد يستمد منها بئر اطلانطس نصيبه أيضاً. ولكن هذا الرافد جف فى السنوات الأخيرة.» رسم الشيخ دائرة حول الموقع الذى حدده وخاطب المترجم : «قل له أن الحفر يجب أن يتم فى هذا المكان. سوف تأتى معى لنتحدث إلى المدير.» .

وبالفعل جرجر غوما مدهوب السردوك وطرق باب كونسا فى المعسكر. ويروى السردوك أن الرقريقى أحس أن الأمر لا يخلو من وشاية زميله فتولى الدفاع عن نفسه وهو يتقافز هنا وهناك أمام الشيخ الذى هدده بسبابته وقال فى لهجة تكشف عن وعيد مكتوم : .«بلغنى أنك تريد أن تلعب برزق الأطفال والعجزة وتقتلهم جوعاً وعطشاً ! تتآمر على النبع وتحملنا وزر أخطاءك . إياك ! إنى أحملك مسئولية الاستمرار فى لعبة النعامة هذه . تتظاهر بالتوفيق فى اختيار المكان وتستمر فى الحفر فى المنطقة الغربية خارج حزام النهر حتى إذا انتهت مدة العقد لملمت آلاتك ورافعاتك وحفارتك ورحلت معتقداً أنك ستفلت بهدوء . إياك ! هذه حيل لن تمر . يجدر بك أن تسمع نصيحتنا وتنقل حفاراتك إلى المنطقة الجنوبية الشرقية إذا أردت أن تقدم الدليل على حسن النية وتحافظ على شعرة معاوية فى علاقتنا!» . لوح بيده فى الهواء ساخطاً وهو يستدير متأهباً للانصراف . ثم توقف وألقى له بالقفاز : «.. أنصحك أن تفعل ذلك اليوم قبل الغد!» .

وقف كونسا محتقن الوجه يتابعه حتى اختفى خلف شجرة نخيل تتشبث

بالأرض وتنتشر أعرافها الكثيفة بوضع أفقى .

بعد يومين كانت الآلات الوحشية الصاخبة تنقل ضجيجها الذى لا يتوقف آناء الليل وأطراف النهار وتزحف نحو الشرق فى تلك المساحة من السبخة التى تتوسط العراء الممتد بين غابة النخيل وجبال الرملة المهيبة .

(9)

مع حلول الشتاء تدفقت ينابيع الأرض وتفجر الماء فى النبع .

تصاعدت المياه العذبة المحملة بالطين والأوحال عبر الفضاء فتجمهر الناس وتزاحم الأهالى يتفرجون على جبل الماء الذى يشق السماء ويعلو ويعلو حتى يبلغ مستوى أعلى نخلة فى الغابة المجاورة ويساوى فى طول القامة قمة جبال الرملة الجنوبية .

تعرّى الأطفال واندفعوا يتقافزون تحت الماء الممزوج بالطين والأوحال وهم يرددون الأغانى التى تندد بالعطش وتلعن الجفاف ، تمجد السيول والأمطار . الأغانى التى توارثوها عن أهلهم وجلبوها معهم من الصحراء .

عجز كونسا وعماله عن السيطرة على المياه فاضطر الأهالى لأن يساعدوا فى إقامته السدوّد الترابية لمنع تسرب النهر الغزير والتسرب هدراً وإغراق السبخة المجاورة التى بدأت تكوّن بالوعات رخوة من الأوحال تتداعى وتهدد بابتلاع المارة القادمين من الغابة أو المتجهين إلى مقر القبيلة الجديد عند حذاء جبل الرملة الشرقى . .

وبرغم كل الاحتياطات فإن المياه استطاعت أن تغافلهم وتتسلل ـ تحت الأرض ـ لتغمر السبخة فترجرجت الأرض فى بقعة كبيرة وتوعدت بابتلاع المارة فأقام غوما حلولها سياجاً من أعراف النخيل . ولكن حماراً انطلق من الغابة وضل الطريق اجتاز السور الجريدى فابتلعته البالوعة وكان أول الضحايا فاعتبر الأهالى ذلك بمثابة تحذير يستوجب اتخاذ المزيد من التدابير لايقاف النزيف ومنع النهر العنيف من اكتساح منطقة السبخة .

ضرب الأهالى أكفا بأكف وتحسروا على الثروة الضائعة وألح الشيخ غوما على كونسا لايجاد حيلة لايقاف تدفق المياه فوعد الرقريقى بالاسراع فى إعداد غطاء الإسمنت ليحكم إغلاق فوهة النبع مما سيساعد على التحكم فى تصريف المياه كلما استدعت الحاجة .

أما الشيخ الجاروف فوجدها فرصة للنيل من الشيخ غوما فانبرى يحرض الأهالى ويردد فى مجالسه : «النبع خطر على منسوب المياه فى الواحة . انظروا باللّه كم من المياه العذبة يضيع فى الهواء ويتدفق عبثاً فى الفضاء ! إذا استمر الأمر هكذا فإنى أعدكم بعطش قريب!» فسارع المتطوعون لاشعال نار الفتن وأبلغوا غوما بحملة الجاروف فلم يعلق بكلمة وبدل أن يتخذ موقفاً تفرغ لاقامة المزيد من السدود الترابية لمحاصرة السيل المتدفق من باطن الأرض لقطع الطريق على المياه ومنعها من اكتساح الرقعة الخطرة ، واكتفى بتذكير كونسا للتعجيل باعداد غطاء الاسمنت الذى وعد به .

بعد أيام استطاع كونسا أن يسيطر على الموقف ويسدّ الفَوهة بالغطاء الإسمنتى الموعود مبقـياً على فتحة صغيرة تتدفق عبرها المياه عند الحاجة إلى رى الحقول بواسطة صنبور من المعدن يتحكـم فى تصريف هذه الثروة التى رق بها قلب الأرض أخيراً وقدمتها هدية مبهجة للقبيلة بعد لهفة وطول انتظار !

وقف غوما بجوار النبع وراقب ألسنة المياه وهى تنساب عبر قنوات صغيرة تكتسح الصحراء العطشى فتمتصها مسامات الرمال النهمة للرطوبة فتختفى بين الذرات الناعمة كالأسفنج لتتسلل إلى أحشاء الأرض مرة أخرى . توضأ من ماء النبع وأدّى صلاة العصر بجوار نخلته الشهيرة الشهيدة ثم جلس خاشعاً مستغرقاً فى قراءة التسابيح وعبارات الحمد والشكر على نعمة الماء .

قرأ الفاتحة أيضاً على أرواح كل الشهداء بداية بنخلته الهيفاء ونهاية بأخته الزنجية مروراً بكلبه المخلص النبيل . ثم توجه إلى الجامع حيث شاءت الصدفة أن يلتقى بالشيخ الجاروف فى طريقه . التقاه فى المدخل الذى يفضى إلى الباحة

حيث يقتعد القرفصاء متسوّل مقعد نزل الواحة منذ أيام بصحبة قافلة تجارية عابرة يرافقه أحد المغامرين الباحثين عن كنوز الصحراء . ارتطم الشيخ غوما برجل المتسوّل الكسيحة المهدودة أمامه كأنه فخ ينصبه اللعين للمارة خصيصاً كي يعترض طريقهم ويستولى على ما ملكت أيديهم وجيوبهم .

ترنح غوما وفقد توازنه فانتهز المتسوّل الفرصة وأمسك بتلابيبه وهو يصيح بالحاح : «حسنة للّه يا سيدنا . حسنة فى الدنيا يكافئك اللّه بأحسن منها فى الجنة» . مدّ يده فى جيبه وألقى له ببعض القروش والملاليم على منديل باهت تتناثر فوقه البقع افترشه أمامه على الأرض . اندفع غوما إلى الأمام بتأفف فاصطدم ـ فى غمرة المفاجأة والضيق ـ بالشيخ الجاروف الذى كان خارجاً من الجامع بعد تأدية صلاة العصر .

تبادلا نظرة طويلة قبل أن يتخذ غوما قراراً سريعاً ويوجه تلك الاهانة التى ظلت تتردد على شفاه الفضوليين زمناً طويلاً . إذ أمسك غوما بأنف عبد الجليل وهزه بين إصبعيه يميناً ويساراً (وهى نفس الحركة التى سبق وأن نفذها ضد الخرفاوى فقضى على مستقبله فى الواحة واضطره أن يهاجر إلى الشمال بل وانتهى به الأمر إلى تقديم الاستقالة والاعتكاف فى بيته بمدينة ساحلية منتظراً الموت فى استكانة وخشوع . بعبارة أخرى انتهى به الأمر إلى ما يسميه أهل الطرق الصوفية بالأنطواء والعزلة) واقترب من وجهه وحدّق فى عينه وقال بصوت مكتوم (والعهدة هنا على الشحاذ الذى روى الواقعة إذ لم يكن هناك شاهد سواه) : «الرجل الحقيقى هو الذى يواجه خصمه ويعلن عن رأيه جهاراً ولكنك ما زلت تصرّ على التزام أسلوب النساء ! تتقوّل فى القفا وتعمل فى الخفاء وتطعن من الخلف فمتى يسعدنا الحظ ونراك تتعامل برجولة؟ بلغتنى أخبار حملتك على النبع وسمعت نغمة جديدة لم أعهدها فى الشيخ الجاروف من قبل وهى حرصه المفاجىء على منسوب المياه فى الواحة فإيّاك ! ثم إيّاك !» هنا أطلق سراح أنفه وواصل طريقه إلى الداخل عبر الباحة فى حين تسمّر الجاروف فى مكانه ممتقع الوجه، ثم التفت يميناً وشمالاً حتى تأكد أن أحداً لم يشاهد الموقف عدّل من وضع جرده على منكبه

وركل الشحاذ بقدمه بقسوة منفساً عن حقده مطمئناً نفسه إلى أن هذا المتسوّل لن يستطيع أن يروى ما حدث لأن فقدانه للبصر سوف يسهل عليه أمر الطعن فيما سيشيعه من أقوال . وبالفعل ، ما لبث الجاروف أن قام باستغلال عاهة الشحاذ فتساءل فى أول جلسة شاى مراهناً على صمت الشيخ غوما طاعناً فى الرواية التى أشاعها الشحاذ : «قولوا لى باللّه : كيف يستطيع الأعمى أن يكون شاهد عيان؟» ثم ردد المثل القائل : «ليس من رأى كمن سمع» مدعماً حجته بأن ما يشاع لا أساس له من الصحة دون أن يقرأ حساباً لمؤهلات هذا المتسوّل الزائر التى ستتكشف مع الأيام .

وكانت أولى هذه المؤهلات قدرة الشحاذ على قراءة الكف وسرد ماضى أهل الواحة بصورة أثارت دهشة الأهالى واعجابهم فزادوا فى اكرام ضيفهم وأغدقوا عليه بالهبات والصدقات . ويبدو أن الشحاذ الماكر وجد أقصر الطرق إلى جيوب هؤلاء البسطاء فعمل على تطوير «مهنته» وأدخل عليها التعديلات والتحسينات أكسبته ثقة الأهالى . منها قيامه بسرد أطراف القصص التى وقعت للزبون الواقف أمامه ، كأن يبادر بالقول : «أنت لم تتناول عشاءك البارحة . نمت بلا عشاء!» أو «. . أنت داعبت زوجتك ثلاث مرات البارحة . الجيران أخبرونى بأن صراخها فى الليل منعهم من النوم!» فيتضاحك الحاضرون ويحمر وجه المعنى ويدس يده فى جيبه ويجزل له العطاء برغم ما سببه له إفشاء السرّ من إحراج !

كان الشحاذ معصوب العينين بخرقة بالية سوداء ، يكسو الشعر المجعد المتسخ وجهه ويديه . أما رجلاه الكسيحتان فملفوفتان فى طيات من القماش القذر . أتخذ من سدّة الجامع مقراً دائماً له . يقضى الليل فى قراءة الأوراد والتمتمة بالتسابيح والاذكار ، وفى الآونة الأخيرة ـ بعد أن انطلت حيله الجديدة فى كسب الرزق ـ طاب له الزحف على ركبتيه ويديه عبر الطرقات والأزقة فى الحى القديم حيث يقضى جل الوقت تحت الجدران المعتمة يطلب الصدقات من المارة ويقرأ أكف النساء المخضبات بالحناء بواسطة اللمس . ويبدو أن هذه الطريقة راقت له إلى حد جعله يغيب فى الأزقة الضيقة أياماً وليال حتى علق أحد الخبثاء قائلاً : «. .

ضيفنا المبجل الشحاذ فضل الحى القديم على سدة الجامع لأن الرغبات فى قراءة الكف أكثر هناك ، وأيديهن أدفأ وأرحم وأنعم وأنعم من أيدى أزواجهن الخشنة ، وكذلك هن أجزل وأكرم فى العطاء!» وكثيراً ما يعلق خبيث آخر : «هن أجزل فى العطاء بنوعيه!» .

يستقبل الحضور النكتة بالضحك والتصفيق ويصبوا اللعنات على رأس المتسول بعد أن يتهموه بالدهاء . ويؤكد العقلاء أن التسكع آناء الليل وأطراف النهار بين الأحياء والأزقة هو الذى ساعد المتسوّل على تقوية مؤهلاته وتجميع مادته فى قراءة أكف أهل الواحة البلهاء ! أنهم يمدونه بالمادة فى الليل ليندهشوا ويفرغوا جيوبهم بين يديه وهم يسمعون نفس المادة من شفتيه فى النهار!

تكشف مواهب المتسوّل الضيف وقدرته على قراءة ما خفى عن البصر جعل الأهالى يميلون إلى تصديق روايته حول «حادثة الأنف» فرددوها كواقعة مسلم بها مما أثار حفيظة الجاروف على الشحاذ الأعمى فأشبعه ركلاً كلما مرّ عليه وهو فى طريقه إلى الجامع أو أثناء خروجه منه خاصة فى تلك الأوقات التى تخلو فيها الطرقات من المارّة كالقيلولة أو قلب الليل .

ولكن الكيد للشحاذ لم ينقذ الجاروف من تصاعد الشائعات وتطور الأمر إلى الفضيحة فعيره الكبار وسخرت منه النساء ومشى خلفه الصغار فى مجموعات تصفق وتردد بايقاع جماعى عبارات توصمه بالجبن وتطعن فى أحقيته للاستمرار فى تولى منصب المشيخة فعرف أن هؤلاء المشاغبين الصغار إنما يتحدثون بألسنة الكبار فانقبض قلبه وشعر بالوحدة والفراغ حتى أنه فكر لأول مرة فى الاستقالة من المنصب .

انزوى فى البيت وأدمن تعاطى اللاقبى حتى قلقت عليه زوجته الشابة خاصة بعد أن باح لها فى إحدى الليالى برغبته الصادقة فى الإنتحار . ويقال أن هلعها عليه فى تلك الليلة هو الذى منحها الإلهام والقدرة على أن تقدم له أجمل هدية انتظرها طويلاً وكانت كفيلة بأن تجبره على إعادة النظر فى قراره بشأن الإنتحار : لقد رزق

الشيخ عبد الجليل الجاروف ـ بعد طول انتظار ـ بمولود ذكر مؤهل لأن يرث منه مقاليد الحكم فى الواحة .

انطلقت الزغاريد وتزاحم الزوار ونحرت الذبائح احتفاء بالحدث أما مهمدو فقال لغوما فى خلوتهما المسائية : «هذا نذير شؤم . لا ينجب آل الجاروف إلا إذا لاحت مصيبة فى الأفق ! أنجب الشيخ عاشور فجاء سعادى بك ونكل بالواحة . أنجب نجله عبد الله فدخل طابور الغزاة آدرار وهم يرفعون رؤوس الشهداء على رؤوس الحراب . علينا أن نتوقع سيلاً يجرف آدرار هذه المرة!» . وأعقب ذلك بضحكة عصبية قصيرة .

لم يعلق غوما .

غرق فى الذكريات وهاجر إلى الماضى .

2 ـ الغزو

(1)

لم يحظ بالاشتراك فى المعارك التى جرت على الشريط الساحلى ـ فى أيام الغزو الأولى ـ إلّا عدد قليل من أهل الصحراء والواحات الجنوبية .

والسبب عائد إلى قيام إيطاليا، بصورة مفاجئة، بقطع المحادثات مع الأتراك واللجوء إلى استخدام القوة ضد مدن «الشاطىء الرابع»[4] فحال القصف المباغت دون وصول رسل زعماء المجاهدين إلى الدواخل فى الوقت المناسب مما أربك المقاومة ضد الغزاة وحال دون تنظيم صفوف المقاتلين على الوجه المطلوب فاستطاع أن يشارك فى القتال أولئك النفر القليل الذين توافق وجودهم بالمدن الساحلية بمحض الصدفة أو الذين شاءت الظروف أن يتواجدوا ـ عند احتدام المعارك ـ فى المناطق القريبة أو المتاخمة لشاطىء البحر فهبوا للاشتراك فى المقاومة وحظوا بشرف الاستشهاد .

ولكن نداء زعماء المجاهدين لم يصل إلى مناطق الدواخل إلّا بعد مرور زمن قاس وطويل تلقت فيه صفوف المجاهدين ضربات موجعة اضطرتهم إلى إخلاء الساحل والتقهقر إلى المناطق الداخلية فى جبل نفوسه ، وانتهزوا ـ أخيراً ـ الفرصة وأعادوا تجميع صفوفهم وبعثوا بالرسل محملين بنداءات الجهاد لأهالى الصحراء والواحات . والمفاجأة كانت فى وصول الرسل فى نفس الوقت تقريباً الذى استطاع فيه العدو اختراق الخطوط الأمامية والتوغل فى الصحراء . فاستيقظ الأهالى ذات

صباح عن أخبار مزعجة تقول أن الغزاة تدفقوا فى الخلاء وهم الآن على مشارف سبها يتهيأوون لاحتلال قلعة القارة .

تزاحم أهالى آدرار فى الساحة الكبيرة أمام الجامع وتقاطر المتطوعون من الجهات الأربع يحملون المعاول والفئوس والمناجل يترنمون بالابتهالات ويتمتمون بالآيات فى قراءات جماعية لشحذ الهمم وتغذية جذوة الحماس فى النفوس .

انتشروا فى الساحة خاشعين واستمعوا إلى خطبة الشيخ المراكشى وهو يدعوهم إلى ضبط النفس والتزام الهدوء والنظام ، ثم تحدث طويلاً عن واجب الجهاد الذى حث عليه القرآن وتناول فى خطابه بالتفصيل أنواع الجهاد بداية بالجهاد ضد النفس اللئيمة الأمارة بالسوء ونهاية بالجهاد المقدس ضد الغزاة المعتدين على الوطن الذين يسعون لسلب شرف الأمة واستعباد الآخرين الذين ولدتهم أمهاتهم أحراراً . وأعلن فى ختام كلمته أن أعيان الواحة وافقوا بالاجماع على اقتراحه بشأن قواعد اختيار العناصر التى ستحظى بشرف المشاركة فى الجهاد والذى تشترط أولى بنوده على قبول مقاتل واحد قادر على حمل السلاح من كل أسرة على أن يتم استثناء عائل الأسرة الوحيد . هنا تعالت الساحة بالصيحات وعبارات الاحتجاج ولكن الشيخ المراكشى تجاهل الاعتراضات وواصل خطابه قائلاً أنه كلف عدداً من الأعوان لمساعدته فى إعداد القوائم والتحقق من توفر الشروط والمواصفات فاستمرت الحناجر تهتف بالاحتجاج .

فى تلك الليلة تكوّم أولئك الذين لم يقع عليهم الاختيار فى الساحة الكبيرة وقضوا ليلتهم أمام الجامع أملاً فى أن يرق قلب المراكشى ويغير رأيه ويسمح لهم بالاشتراك فى أفواج المجاهدين . ولم ييأسوا حتى عندما انطلقت القافلة بعد يومين نحو الشمال فرافقوا ركبها حاملين فئوسهم ومناجلهم ومعاولهم على ظهورهم مرددين عبارات التوسل والرجاء الموجه للشيخ المراكشى الذى مشى فى مقدمة القافلة يقود ناقة نحيلة بائسة هدّها الجوع يحملها ببعض الأمتعة . أما منكبه فقد توّجه بتلك البندقية العثمانية القديمة التى رآها الأهالى فى تلك اللحظة مهيبة لأنهم لم يكتشفوا دورها الخفى إلاّ الآن عندما قرعت طبول الحرب فى أقاصى الشمال .

راقب مهمدو جموع المتوسلين البؤساء وهم يتضرعون لقبولهم فى صفوف المجاهدين ويلحون فى طلب الانضمام للقافلة حتى بلغوا أعتاب السلسلة الجبلية الرمادية فى الشمال فيئسوا ووقفوا يمتشقون أسلحتهم البدائية يرقبون فى حسرة وأسى القافلة المحظوظة التى بدأت تصعد الطريق الجبلى المفضى إلى جبل الحساونة .

كان مهمدو يراقب الموقف الحزين من مدخل مغارته فى قمة الجبل . وقد أحس بالشفقة ليس نحو المتخلفين عن الركب الراغبين فى الالتحاق فقط ولكن نحو أولئك الأشقياء الذين غادروا لملاقاة العدو ، المجهز بأسلحة خرافية تروى عن فعاليتها الأساطير ، بأيد عزلاء من السلاح .

فى تلك الأيام بيعت البنادق العثمانية الصدئة بأسعار خيالية . وترددت فى الواحة حكاية عن أحد الفلاحين الذى ضحى بحصته من ماء عين الكرمة واستبدلها مقابل بندقية عثمانية من ذلك النوع الذى يوفق فى اطلاق رصاصة واحدة من بين الست رصاصات !

وبرغم حلول الخريف وانقضاء موسم الحمّى ـ التى تنشط فى فصل الصيف ـ إلا أن مهمدو كان وقتها يغالب المرض . نوع من الحمّى أقعده عن مصاحبة صديقه المراكشى ومنعه من الانضمام لقافلة المجاهدين حتى تناهت إلى سمعه انتقادات الأهالى التى لم تقم لعلّته وزناً فعيّرته بالجبن والتقاعس عن تلبية نداء الجهاد فتناقلت الألسن : «العراف يتمارض . أنه يعرف أن الجهاد ضد الجن شيء والجهاد ضد الطليان شيء آخر ! حقاً أن الحرب تضع الناس على المحك وتفرز معدن الرجال!» . وفى أحد الأيام فوجىء بكوكبة من الصبية تتزاحم أمام المغارة تصفق بايقاع منتظم وتردد فى صوت جماعى : «مهمدو مرة ! مهمدو مرة !» فأدرك أن أعيان الواحة الذين لا يصدقون مرضه هم الذين أرسلوا فريق الصبية لاستفزازه .

والواقع أن الأمراض لم تتركه منذ إصابته بتلك العلة المجهولة (التى ساقته إلى القبر وعادت به إلى الحياة مرة أخرى) عند صراعه مع شبح تامزا العنيدة . ما

أن يتماثل للشفاء زمناً ويتمتع بالصحة التى لا يعرف قيمتها إلا المرضى المعلولين أمثاله حتى يسقط فريسة الحمّى من جديد . وقد توافق مرضه الأخير مع وصول مبعوثى المجاهدين وتصاعد نفير الحرب فزاره الشيخ المراكشى قبل الانطلاق بيومين ووعده بأن يقتل نيابة عنه ثلاثة جنود إيطاليين . أعقب ذلك بضحكة عزاء وتمنى له الشفاء قبل أن ينصرف . تعمد ألاّ يودعه بالمراسم التقليدية حتى لا يثير شجونه فاكتفى بالتحية والأمانى العادية بليلة سعيدة كأنه سيلتقى به فى الغد .

ولكنهما لم يلتقيا بعد ذلك أبداً .

مرت أسابيع غالب فيها المرض وصارع الاغماء والحمّى قبل أن يهرع إلى السوق بمجرد أن شعر بالتحسن . هناك حالفه الحظ واشترى بندقية صالحة للاستعمال من قافلة تجارية متجهة صوب آير كما استطاع أن يبتاع ناقة قادرة على حمل الأثقال وضع على ظهرها أمتعته وأحكم رباط السرج قدّام السنام وانطلق عبر طريق الشمال عازماً أن ينضم إلى القافلة .

ولكن الحظ لم يحالفه للاشتراك فى المعارك . إذ وجد أن معركة القارة قد أسفرت عن مصرع عدد كبير من خيرة المقاتلين من مختلف الواحات والمناطق كان الشيخ المراكشى أحدهم . وتراجع الغزاة إلى الوراء وعادوا للاحتماء بالمدن الساحلية بعد الهزائم المتتالية التى منوا بها وأجبرتهم مع الوقت لتوقيع معاهدة الصلح التى كان من نتيجتها تأسيس الجمهورية الطرابلسية فى العشرينات .

توقفت الصدامات وأمر الزعماء بتسريح المقاتلين وعاد مهمدو إلى كعبته فى المغارة وتمتع الأهالى بالسلم زمناً لم يدم طويلاً . إذ أنهار الصلح بمجرد أن التقط العدو أنفاسه وتلقى الامدادات اللازمة من البحر فخالف بنود المعاهدة وخرق وقف إطلاق النار وتجددت الاشتباكات على طول الساحل فأقبل الرسل مجدداً وتنادى أهالى الصحراء والواحات استعداداً لصد الغزاة الذين يستعدون الآن للتغلغل فى الدواخل والعودة إلى أعماق الصحراء .

فى الرحلة الثانية لصد هجوم الطليان جاءه غوما فى المغارة .

كما كانت واحة آدرار كعبة للتجار ونقطة لالتقاء القوافل فى عصرها الذهبى فإن موقعها الاستراتيجى فى قلب الصحراء ساعدها فى أن تتحوّل إلى مركز لتجمع قبائل الصحراء أثناء تنظيم الحملة الثانية فساهمت فى لم شمل الصفوف استعداداً لتزويد المعارك الدائرة فى الشمال بالوقود البشري اللازم.

بعد أن عاد من رحلته الأولى خائباً تعود مهمدو أيامها أن يقف فوق قمة الجبل فى مدخل معقله مع الغروب ويراقب الضيوف الملثمين وهم يتقاطرون على الساحة الكبيرة ويلتحقون بالجامع بعد أن تحوّل إلى معسكر لتجنيد المقاتلين وفرز العناصر اللائقة لحمل السلاح .

مع حلول المساء وتكاثف العتمة خرج لتأدية جولته المسائية . سنّه كان يسمح وقتها بجولة أخرى ليلية إلى جانب مشواره الصباحى المبكر فتجمع الأطفال واقتفوا أثره وهم يصفقون ويرددون: «مهمدو مرة !» . انتهز الكبار فرصة عودته الخائبة من الواحات الشمالية فأطلقوا الصغار خلفه ليسمعوه عبارات السخرية والتهكم . تألم لانقشاع الغمة قبل وصوله وتألم أكثر لأنه لم يكن بجوار الشيخ المراكشى عند استشهاده فى تلك المذبحة الفظيعة التى أقامها الغزاة ضد الفدائيين فى قلعة القارة قبل انسحابهم نحو الساحل بأسابيع قليلة .

درّب نفسه على ضبط النفس وتجاهل هتاف الصبية وإهاناتهم قائلاً فى نفسه أنهم إنما يتحدثون بألسنة آبائهم الذين نسوا دوره ضد بطش القائمقام العثمانى كما نسوا تضحية الشنقيطى قبله وسوف ينسوا الآن المراكشى الجليل . ولكنه لن يفقد الأمل فى وجود نفر قليل يتحلون بالوفاء فيذكروا لأبنائهم ما حدث بالأمس فى آدرار وما يحدث اليوم وما سوف يحدث غداً . وقلما يوجد الأوفياء الذين يتمتعون بقوة الذاكرة . وما دام الأمر كذلك فلا يضر أن يعلو صراخ الصغار بلغة بعض الكبار الذين يعانون من مرض ضعف الذاكرة ونكران كل فعل جميل .

هو يراهن على أولئك المتطوعين الذين يتسللون خلسة إلى الجامع ويكتبون

بخطوطهم الرديئة وأصابعهم المرتعشة وقائع الواحة فى صفحات المخطوط الضخم المغلف بجلد الماعز المحفوظ بين الكتب القديمة على الرف المجاور للمنبر . هناك يكتبون الحقيقة .

اجتاز الربوة الواقعة فى نهاية العراء الممتد جنوباً فتخلّف الصبية وتراجعوا عن ملاحقته فخفت ضجيجهم وغابت أصواتهم . انحرف يميناً عازماً أن يقفل نصف الدائرة من الطريق الغربى فقابل جماعة من الملثمين الراجلين عن جمالهم يقودون قافلتهم باتجاه الحى القديم تحت ستار العتمة .

فى منتصف الليل زاره غوما وقدّم له شاباً يافعاً طويل القامة حاد البصر وقال له أنه إبنه . وبرغم الربكة والانشغال بالأحداث التى تهدد الصحراء إلاّ أن غوما لم ينس أن يأتى له بهديته من البرّ : شرْيحة من لحم الغزال المجفف وجراباً كاملاً من ترفاس الموسم الماضى مجفف أيضاً ومقطع إلى أجزاء صغيرة ما زالت تفوح بتلك الرائحة السحرية المجهولة برغم مرور شهور على تجفيفها .

لم ير غوما منذ زمن طويل عندما «ساعده» فى أن يتراجع عن قراره فى الفرار من نفسه والضياع فى بلاد الله الواسعة . كان ينوى أن يتوجه إلى نهر النيل طلباً لما يسميه «العلم» و«المعرفة» فجعله يعدل عن رحلته بمساندة الرجال الطيبين من أهل ما وراء الطبيعة الذين يحبون غوما مثله ويشفقون عليه من قساوة الغربة وألم الضياع فى الدنيا الزائلة . هب معشر الجن لمساعدته فى إنقاذ الشاب الملثم القلق الباحث عن الحقيقة فى عالم البشر وأجبروه أن يلتفت إلى نفسه ووعدوه بأنه سيجد «هناك» كل ما يبحث عنه فى الوجود الفانى . أسدوا له النصيحة على لسان مهمدو : «استمع إلى الصوت الذى ينطلق من داخلك ولا تبحث عن شيء خارج نفسك . تعلّم ذلك إذا أردت أن تنجو من المرض وتفوز بالخلاص» . فعاد الرجل على أعقابه والتحق بقبيلته فى وادى الجعيفرى .

خلع غوما نعليه وبندقيته واقتعد الأرض . أومأ لابنه بالجلوس بنظرته . أوقد مهمدو النار وتهيأ لإعداد الشاى الأخضر . بعد قليل لاحظ أن الشاب قد غفا وهو

متقرفص فى جلسته . أسبل جفنيه وانتظم تنفسه فعرف العراف أنه استسلم لنوم عميق دون أن يترنح أو يتمايل فى جلسته .

كان واضحاً أنه مجهد .

علّق مهمدو :

ـ أرى أنه قد ورث عنك كبرياء الملثمين !

فرّك غوما يديه قبل أن يقول :

ـ هذا لا يدخل ضمن كبرياء الملثمين . كبرياء الملثمين أصعب من ذلك بكثير ! كل ما هنالك أنه لن يكون ابن الصحراء إذا لم يتعلم كيف ينام وهو واقف أو وهو يتنقل فى الخلاء . ذلك يشبه صيد غزالة طائرة فى الفضاء بطلقة من صياد يجلس على مهرى يعدو بسرعة الريح . أمر لا يحتاج إلى الموهبة بقدر ما يحتاج إلى التدريب والمران .

ثم أزاح لثامه عن فمه وأضاف بارتياح :

ـ ولكن خبرنى الآن : كيف حال الواحة؟ كيف حالك طوال هذا الزمان ؟ قيل لى أنك اشتركت فى صد الاجتياح الأول .

مروح مهمدو النار بمروحة مضفورة بالسعف الملوّن . قال :

ـ لا أدعى شرف الاشتراك فقد وصلت بعد المذبحة .

ـ نسيت أن أعزيك فى الشيخ المراكشى . رحمه الله . . .

ـ لقد ذبحوه من الوريد إلى الوريد .

ـ رحمه اللّه . الحرب هى الحرب . .

ـ الحروب أيضاً لها قانون يحكمها . قانون الحرب لا يبيح الذبح ويستنكر التنكيل بالأحياء .

لم يكن غوما على علاقة وطيدة بالمراكشى المرحوم فلم يعط لنفسه الحق فى

أن يحزن على مصيره الأسيف بنفس الدرجة التى تأثر بها مهمدو الذى ربطته به صداقة حميمة . رحمه فى السرّ وقال بصوت مسموع :

ـ هذا القانون لا يجب أن يمنعنا من توقع أسوأ المفاجآت فى الحروب . ولكن الجدل الذى يدور فى آدرار حول تباطؤك فى الانضمام إلى القافلة احزننى .

صمت وراقب العراف تحت لثامه فى ضوء النار الخافتة وأضاف كالمعتذر :

ـ لا أخفى عليك تأثرى فى أن يتأخر عن ركب كهذا رجل مثلك أكن له احتراماً خاصّاً .

رفت ابتسامة باهتة على شفتى العرّاف قبل أن يقول وهو يعود ويمروح النار الخابئة :

ـ عندما جاء رسل الزعماء كنت طريح الفراش . عاودتنى العلّة فاقعدنى المرض . لم يكلف أحد بالطبع نفسه ويبوح لك بالحقيقة كاملة . أطلق هؤلاء الشامتون الأطفال خلفى يعيروننى ليل نهار ويصفوننى بأنى جبان ومرة !

ساد الصمت.

قال غوما:

ـ كالعادة . قالوا نصف الحقيقة وأخفوا الباقى . الأنباء التى وصلتنا فى الصحراء تقول أن مهمدو كشف عن معدنه الحقيقى وتعمد أن يتباطأ فى تلبية نداء الواجب متعللاً بالمرض . لقد تمارض . هكذا قالوا بالحرف : «العراف تمارض بمجرد أن جدّ الجد ولاح فى الأفق شبح الرصاص» . هذا ما أبلغته لنا الريح فى فيافينا البعيدة . حتى الصحراء لها آذان تسمع كما ترى !

سحب الشاب النائم فى جلسته نفساً عميقاً ثم واصل سباته ممسكاً ببندقيته فى حجره .

قال مهمدو والابتسامة الباهتة الساخرة ما زالت تعلو شفتيه :

ـ وهل تستغرب أن يكون للقيل والقال أجنحة تبلغ أقاصى الدنيا ؟ مرضى كان

فرصة استغلها المغرضون للنيل من سمعتي . وشاء سوء الحظ أن تنتهي المعركة في القارة قبل وصولي فقالوا أني سافرت لا لكي اشترك في الجهاد ولكن كي أشترك في دفن المراكشي في رمال زلّاف الرامضة وأعود لممارسة طقوسي وحياتي السهلة الآمنة في صومعتي على الجبل . هيء ـ هيء ـ هيء . . . قرأت كل شيء في عيونهم قبل أن أسمعه من أفواه الأطفال .

سكت وبدأ يخلط الشاي . قال دون مبالاة :

ـ هل تعرف من وراء هذه الدعاية ؟

أضاف دون أن ينتظر جواباً :

ـ عبد الله الجاروف . ابن الشيخ عاشور عميل القائمقام العثماني الذي دفنه الناس حيّاً في الأرض عندما ثاروا ضد البك .

هزّ غوما رأسه المتوج بعمامة بيضاء وتمتم بصوت هامس :

ـ فهمت فهمت . هذا مفهوم . يريد أن يوصمك بالعار!

استيقظ الشاب وفتح عينيه دون أن يعدّل من جلسته . رمقه غوما وابتسم في حين قدّم له مهمدو كأس الشاي المعمم بالرغوة .

(3)

عندما انطلقت القافلة في طريق الشمال شيعه عبد اللّه الجاروف قائلاً :

ـ جاء الوقت المناسب يا مهمدو كي ترينا حيلك . نريدك أن تستعمل سحرك ضد أعداء الأرض وأعداء السماء . هذه فرصتك يا مهمدو كي تسكت المشككين في مواهبك !

وأعقب ذلك بضحكة تهكّم مريرة فتبادل مهمدو مع غوما نظرة ذات معنى . أومأ له غوما بالّا يعيره اهتماماً ثم التفت نحو الجاروف وحدجه بنظرة صارمة .

أجلس مهمدو خلف السرج وتولى قيادة الجمل بنفسه ومشى إبنه بجواره

مسافة طويلة ثم تخلّف خطوات عند بلوغ الجبل الرمادى ليتبادل الأحاديث مع شباب القبيلة الذين ساروا خلف القافلة على الأقدام.

هذه هى الدفعة الثانية من أفواج المندفعين للحج إلى ساحة القتال لصد هجوم الغزاة الثانى . وكانت الدفعة الأولى أوفر حظاً سواء فى امتلاك السلاح أو فى الحصول على الدواب الصالحة لعبور الصحراء . وقد اضطر المحاربون إلى استبعاد الحمير كمركوب بعد أن أثبتت التجربة فى معارك الهجوم الأول عدم قدرتها على اجتياز الصحراء الرملية فهلك معظمها فى زلّاف واضطر أصحابها لحمل أثقالها على ظهورهم . ولم يفت السويعدى أمام الجامع (الذى تولّى تنظيم الحملة خلفاً للشيخ المراكشى) أن ينبه رجال هذا الفوج بالاستغناء عن الحمير والاقتصار على استعمال الجمال والخيول . هذا جعل المتطوعين يبيعون حميرهم وقطعان أغنامهم لاستبدالها بالدواب الصالحة لعبور الرملة .

مشكلة أخرى واجهت الفوج وهى : السلاح !

كانت حيازة السلاح أيام القائمقامية العثمانية محظوراً بحكم القانون . وقد سنّ الطاغية نورى بك أحكاماً إضافية تبعها باجراءات تعسفية تنزل أسوأ العقوبات بمن يثبت حيازته للسلاح تبدأ بالجلد العلنى وتنتهى بعقوبة الاعدام شنقاً أمام جمهور الرعية . وهذا جعل أولئك النفر القليل الذى يمتلك هذه البضاعة الخطيرة يحرصون على إحاطتها بالسرية التامة خوفاً على رقابهم .

وبرغم أن عصراً ذهبياً أعقب حكم نورى بك إلّا أن الحائزين على السلاح لم يصدقوا حياة الديمقراطية الجديدة التى عاشتها الواحة وظلّ شبح الطاغية ماثلاً أمام أعينهم ، ساكناً فى قلوبهم حتى إذا تنادى الشجعان ودقت طبول الحرب قام هؤلاء ببيع تلك البنادق العتيقة فى السوق السوداء بأسعار خيالية جلبت لهم الثراء السريع .

فالتهمت الدفعة الأولى كل ما تبقى فى آدرار من سلاح خفى ولولا أهل الصحراء الذين هبوا لنجدة المحاربين وزودهم بعدد محدود من القطع لاضطرت

قافلة الإمام السويعدى أن تتحرك بأيد عزلاء . وبرغم ذلك فإن أغلب المقاتلين من الواحة اضطروا أن يتسلحوا بالمناجل والفئوس وحتى الهراوات .

أهل الصحراء أيضاً عانوا من أزمة العتاد وإن ظلّوا فى وضع أفضل من سكان الواحات . إذ انقطعت هذه البضاعة من الصحراء بعد احتلال السواحل من قبل الطليان فارتبكت تجارة القوافل وصعّد التّجار من أسعار البنادق والرصاص إلى أرقام خيالية . ولكن بنادق الصيد العثمانية الموروثة أباً عن جد أنقذت موقف الملثمين فزودوا رفاقهم فى الواحات بتلك القطع الزائدة التى انتزعوها من أصحابها الذين أجبرتهم القرعة على البقاء فى النجوع لحماية البيوت وتأمين حاجات العجزة والقصر والمرضى غير المؤهلين لحمل السلاح .

تحرك الفوج على أمل آخر وعد به رسل الزعماء عند زيارتهم فقالوا أنهم سوف يتولون توفير العتاد اللازم ، كما أنهم سيعملون على تمرين المتطوعين على استعمال السلاح فى معسكرات تدريب خاصة أعدّت لهذا الغرض برغم أن تجربة القتال فى المرة الماضية أثبتت أن الزعماء لا يستطيعون أن يوفوا بوعدهم دائماً ويوجدوا الضمانات لأن الحرب كثيراً ما تملى ظروفاً لم يقرأ لها القادة حساباً . وهذا ما جعل حكماء الواحة يوجهون النداء تلو النداء للمقاتلين بضرورة الاعتماد على النفس وعلى السلاح الذى بحوزتهم حتى لو كان مجرد معاول وهراوات فجاء أولئك الذين لم تتوفر فيهم الشروط ورأوا أن يبرئوا ذمتهم ويساهموا بنصيبهم فتبرعوا للمحاربين بكل ما ملكت أيديهم من المؤن والأمتعة والنعل المصنوعة من المطاط وجلود الحيوانات . وبرغم كل الاحتياطات والتحوطات إلا أن عدداً كبيراً من الرتل سار حافياً عارى القدمين وفريق آخر مشى راجلاً وفريق ثالث رحل فى القافلة أعزل من كل سلاح .

امتشق مهمدو بندقيته التى اقتناها من القافلة التجارية ولم يستطع أن يختبرها فى المعارك الماضية ، كما ظلت الرصاصات السبعة عشر التى حصل عليها من نفس التاجر كاملة . أما الناقة البائسة فقد ماتت بسبب فقدان الشهية وسوء الهضم .

أضربت عن الطعام شهوراً كاملة فجاء لها بعطار يدعى الخبرة فى معرفة داء الحيوان كشف عن أنيابها وقال له أن حالتها ميؤس منها لأن الحزن على فراق حيوان عزيز قد تمكن منها . وبالفعل ماتت بعد يومين بالضبط .

نزل عند رغبة غوما وقبل اقتراحه بشأن الاستعانة بجمله فى التغلب على الطريق وقطع الصحراء .

تبادلوا ثلاثتهم على المركوب ، وبعد مسيرة ستة أيام بلغوا مشارف المرتفعات الجبلية شمال واحات الشاطىء فاستقبلهم رسول زعيم أقرب تجمع للمجاهدين وأخبرهم أن قائد المعسكر لن يستطيع أن يفى بوعده بشأن العتاد لأن معاركهم الأخيرة مع العدو لم تسفر عن غنائم بل أن قصف المدافع اضطرهم إلى التراجع والتسليم فى أكثر من موقع هام وطلب منهم أن يتحلّوا بالصبر ويحاولوا أن يتدبروا أمرهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

كانت هذه أول صدمة خيبت آمال ضعاف النفوس الذين لم يجربوا الهجرة خارج الواحة ولم يعرفوا الخيبة ولم يسبق لهم أن ذاقوا طعم الهزيمة والاغتراب . الهزيمة تصقل وتدرب وتقود إلى التفوق والانتصار . ولكن الفلاحون لم يكشفوا عن الشك أو الضعف حتى ذلك الوقت .

استمرت المسيرة أياماً أخرى . انتهت حدود مملكة الرمال المتحوّلة وتلقفتهم صحراء جبلية قاسية سلخت أقدام الحفاة بأحجارها الحادّة وأنهكت المشاة المحملين بالأمتعة والمؤن . لم يكن الفصل (بداية الربيع) مناسباً كى تطلق عليهم الشمس أشعتها الوحشية ولكن طول المسافة وقساوة الطريق ونقص الدواب والماء والمؤن هدّ حيلهم وضرب معنويات الكثيرين . خاطبوا أنفسهم : «إذا كان عبور الصحراء بهذه القسوة فكيف بمحاربة الطليان ومواجهة مدافعهم؟» .

نزلوا نجعاً تتناثر خيامه فى قاع وادٍ أجرد عار من النبات تسكنه قبائل البدو والرعاة فعسكروا على المنحدر بجوار خيامهم الرمادية التى بهت لونها وشحب بعد أن حرقتها أشعة الشمس العمودية .

استضافهم أهل النجع بالماء ووزعوا عليهم الشاى الأخضر ووقفوا يتفرجون على أرتال الرجال المنطرحة فى إعياء على طول المنحدر : وجوه تتصبب بالعرق ، وأقدام تنز بالدماء، وجوه ممتقعة ، وشفاه متشققة يعلوها الزبد والشحوب . لم ينتظروا الذبائح من هؤلاء البدو البؤساء ، ولم يكن باستطاعة أهل النجع أن يستضيفوهم بغير الماء وقليل من الشاى الذى جاؤوا به فى نفس جرادل الماء !

لم يفت مهمدو أن يتندّر على الحادثة فمال على غوما وهمس فى أذنه مغتصباً ضحكة عصبية لا تليق بالموقف : «فى حياتى لم أذق شاياً أخضر من جردل ماء ! هىء ـ هىء ـ هىء !» وعندما لاحظ الامتعاض على وجه غوما ابتلع ضحكته فجأة وأضاف محاولاً أن يضفى لهجة جدية على لغته : «.. إذا كان ثمة شىء يستحق التخليد فى هذه الرحلة المباركة فهو شاى الجردل هذا!» ، سمعه الرفاق المجاورين فحدجه أحدهم بنظرة استنكار طويلة ثم التفت خلفه وبصق لعاب التبغ الممضوغ معلناً احتجاجه !

فى اليوم التالى واصلوا المسيرة .

لم يروا الغبار فى الأفق ولم يتناه إلى سمعهم القصف إلا بعد مسيرة أيام أخر.

(4)

فى المعسكر الكبير انضموا إلى جيش المجاهدين القادمين من الواحات الداخلية الأخرى بالإضافة إلى المقاتلين النازحين من الواحات الشمالية والمدن الساحلية . أشرف القادة على تنظيم شملهم وقسموهم إلى فرق ومجموعات تأتمر كل فرقة أو مجموعة بقائد معين من قبل الزعماء ومدعوم برتبة عسكرية إمعاناً فى النظام ومنعاً للفوضى . ولكن لم يستطع أحد من أهل الواحات والصحارى أن يتذكر أسماء هذه الرتب التى رأى فيها الكثيرون تشبهاً بالنصارى وتقليداً للعدو فتجاهلوها عن عمد محاولين ، فى نفس الوقت ، أن يلتزموا بتنفيذ الأوامر والتعليمات.

في اليوم الرابع وقع مهمدو أسيراً فى أيدى العدو .

حدثت الواقعة المؤسفة مع المساء ، بعد الغروب بقليل . هدأ القصف المدفعى وتحول النزاع بين الطرفين إلى مناوشات بإطلاقات البنادق تسمع متفرقة على طول الجبهة بين الأودية السفلية والمرتفعات الجبلية الفاصلة بين الفريقين .

وأكثر ما أثار حنق غوما هو أن مهمدو لم يقع وهو يخوض غمار معركة ولكنه سقط بين أيدى الطليان وهو يقضى حاجته خلف المرتفع فتلقفته ألسن الرفاق وصنعوا من الحادثة مادة للتندر . سمعهم غوما يقولون : «هذا يليق بالسحرة! متى كان السحرة أمثال مهمدو يتطاولون فى القتال؟ طبيعى أن يقبض عليه النصارى وهو يقضى حاجته!» ويعقبوا تعليقاتهم المريرة بالضحكات المجلجلة . ضراوة القتال وقسوة الظروف انتزعت من نفوسهم المرح وقضت على روح النكتة فما أن يقع حادث طريف حتى تتخاطفه الأفواه وتتناقله الألسن على طول الجبهة .

وهذا ما حصل مع قصة مهمدو فامطروا رفيقه غوما بالأسئلة الفضولية الحرجة عن الظروف المخجلة التى صاحبت وقوع العرّاف الشقى فى الأسر! وكان غوما يشيح بوجهه ويخفى خجله تحت لثامه المعفر بالطين والغبار ويهمهم بعبارات غير مفهومة!

فى مساء اليوم التالى ، فى عتمة الغروب ، خيب مهمدو ظن الشامتين وأنقذ رفيقه من الموقف الحرج فجاء إلى المعسكر وبحث عن غوما بين المقاتلين المنطرحين خلف المرتفع وأعلن له ضاحكاً أنه تمكن من الإفلات! كيف؟! قال باقتضاب وهو يتوسل فى أن يعدّوا له كأساً من الشاى الأخضر : « . . هربت! قرأت على رأس العسس آية الكرسى المعكوسة وتعويذة أخرى تقيد العفاريت تعلمتها من المرحوم الشنقيطى فنام الحرس وتسللت من معسكرهم . هىء - هىء - هىء . . » .
لم يخف غوما دهشته كما أصغى له جماعة من المحاربين مبهوتين . أسوف (ابن غوما) ابتسم وأحكم زمالته على وجهه وانسحب إلى الخط الأمامى حيث يتجمع شباب القبيلة يعانون الجرحى ويتبادلون الأحاديث المسائية . سمع تراشق برصاص الأسلحة الخفيفة أعقبه صوت انفجار عنيف فى نهاية الجبهة غرب المرتفع المغطى بالشجيرات البرية التى تبدو عن بعد مثل سنام جمل يكسوه وبر كثيف.

عاد مهمدو يشكو من الصداع ويتوسل أن ينقذوه بالشاى . اشتكى قائلاً :

ـ سقونى ماء ساخناً كبول الإبل وأطعمونى رغيفاً جافّاً كالحجر وتلقيت على وجهى اللكمات . هىء ـ هىء ـ هىء . . ولكنهم لم يسلخوا ظهرى بالسوط كما يروق للقائمقام أن يفعل بالأسرى الذين يسوقهم الحظ السىء للوقوع بين يديه!

كانت أوامر القادة تمنع إشعال النار ليلاً فاضطر غوما أن يطوف على المقاتلين من مختلف القرى والمناطق بحثاً عن بقايا باردة من الشاى . انتهت جهوده إلى الفشل فجاء من أمتعته بحفنة من أوراق الشاى قدمها لرفيقه ونصحه أن يمضغها جيداً ويدسها تحت لسانه . لعابها يزيل الألم ويخفف الصداع .

فى قلب الليل عاد العرّاف يشتكى من الوجع ويلح ، كالطفل ، أملاً فى الحصول على كأس الشاى.

قال غوما وهو يوقد النار ويحجبها عن الأنظار بغطاء :

ـ هذه عقوبة الإدمان! شيخ الطريقة الصوفية يقول أن على الرجل الحرّ ألّا يدمن شىء حتى لو كان مخدع زوجته! أنت تعرف هذه الحكمة أكثر منى!

وبرغم أن مهمدو اشتكى قائلاً أن الشاى ينقصه النضج إلا أن الجرعة أمنت له نوماً هادئاً!

(5)

لم يطل صمودهم فى الحمادة الحمراء العارية فانسحبوا إلى الصحراء الجنوبية . طاردهم الغزاة بالقصف المدفعى حريصين ألّا يدعوا لهم مجالاً لالتقاط الأنفاس أو تجميع الصفوف.

خسائرهم كبيرة.

استمرّوا فى التراجع حتى انتهى بهم المطاف فى محروقة . زودتهم الواحات والقرى الشرقية والغربية بالإمدادات ووصلت القوافل المحملة بالماء والتمر والشاى وأصبحت الصحراء الرملية المجيدة ساعدهم الأيمن . غرقت آليات الغزاة فى بحر

الرمال العظيم فارتبكت خططهم وحركتهم ووقعوا فى كماشة المجاهدين .

فى تلك الموقعة الشهيرة استشهد أسوف وجاء دور غوما كى يقع فى الأسر . وكان يمكن أن يسير كل شيء على ما يرام لو لم يعيّروه بالكتب وبصداقته لـ «الساحر الجبان ذو الأطوار الغريبة!» فلعبت كبرياء الملثمين برأسه فاندفع إلى الأمام رافضاً إطاعة القادة الذين أمروا بالانسحاب تنفيذاً لخطة مبيتة أقرّت ليلاً قصد بها المناورة وإنهاك العدو فى رمال زلّاف مستغلين عدم خبرته بحرب الرمال.

اتبع القادة والزعماء تكتيكاً جديداً يقتضى شن غارات فدائية ليلية مفاجئة على تجمعات العدو والانسحاب إلى الكثبان الرملية التي يصعب على الطليان اجتيازها بآلياتهم الثقيلة وسياراتهم الشاحنة.

أثبتت الهجمات المباغتة المنتظمة فعاليتها فى إرهاق القوات المعادية فأجبرتهم على التراجع إلى حدود الصحراء الجبلية وعسكرت فى أطراف محروقة بانتظار وصول الإمدادات من طرابلس كى يعوض العدو خسائره ويعيد تنظيم صفوفه.

فى اليوم السابق على الاشتباك نهض فى عتمة الفجر . تيمم وصلى وأصغى لأنين الجرحى المتقطع . كشف الأفق عن خيوط الضوء الأولى فأخرج من أمتعته كتاباً سميكاً متآكل الجوانب وفتحه فى حجره وشرع يقرأ بصوت مسموع .

كانت تلك مقدمة ابن خلدون . جلبها معه ضمن ما جلبه من كتب عندما عاد إلى مخيمات القبيلة من رحلته الأليمة إلى الواحات . مشهد الكتب المهيب جعل أقرانه فى القبيلة يشيعونه باحترام لا يستحقه ويعاملونه بقداسة «العالم» الذى يعرف خفايا الدنيا ويقف على أسرار الكون . وحتى عندما نادى المنادى وأقبل الرسل ودقت طبول الحرب حاول العقلاء أن يثنوه عن عزمه فى الاشتراك . برروا رأيهم بالقول أن الحرب والعلم شيئان مختلفان . طريق المحارب غير طريق العالم : فما الذى يحمله على ما لا طاقة به للعلماء أمثاله؟ يقينهم بأن الحرب لم تخلق «للعلماء» جعلهم يشيعونه بنظرات ملؤها الإشفاق بعد أن فشلوا فى إجباره على البقاء والتراجع عن قراره . وها هم شباب القبيلة الطائش يرمقونه الآن ـ وهم

يشاهدون علاقته اليومية بالكتب ـ بنظرات تعبر عن الاستنكار أكثر مما تعكس أى تعبير آخر . مع الأيام اختفى فى أعينهم الجلال الذى يكنونه للكتب وفتر حماسهم فى تقديس العلم والعلماء . ويبدو أن الحرب عندما تطول تغير النفوس وتدفع الناس إلى التأفف والاشمئزاز والنفور ليس من بعضهم فقط ولكن من أنفسهم أيضاً .

مع الأيام سمحوا لأنفسهم بأن يتهكموا أيضاً . قالوا : «لا يليق بالعلماء أن يتظاهروا بالقتال . يجيئون كى يستعرضوا علومهم ويخفوا رؤوسهم فى الكتب كما يخفى النعام رأسه فى الرملة . إنهم عبء على كاهل المقاتلين» . وكانوا يأتون على ذكره وعندما تجىء سيرة مهمدو يشبعونه تقطيعاً واغتياباً بلغة لا تخلو من التشفى . حرصوا فى البداية على التهامس بآرائهم وثرثرتهم ومع الوقت أعلنوا استفزازاتهم بالخشونة والصوت المسموع . في لهجتهم ارتفعت نغمة جديدة جريئة لم يعهدها فى مخاطباتهم من قبل : هل هى الوقاحة؟ أم مجرد خشونة؟

السبب يكمن فى الحرب . ولكن ألا تساعد الحرب فى الكشف عن معدن البشر الأصلى؟ أليست هذه الرذائل جزءاً كامناً فى طبيعة الناس يحاولون أن يخفوها فى الظروف العادية؟

انتهى من القراءة وعلّم الصفحة المقروءة بغصن شجرة برية ودس الكتاب السمين فى الجراب بين أمتعته .

ارتفعت الشمس أشباراً عن خط الأفق . الحر المبكر يبشّر باللهب المقبل مع اقتراب انتصاف النهار.

ودبّت الحركة فى معسكرهم الصغير . رأى القادة تشتيت المجاهدين إلى فرق ومجموعات تنتشر بين أشجار النخيل المتناثرة هنا وهناك على أن تحتمى المجموعات الأخرى خلف التلال والمرتفعات الرملية ، ولجأوا إلى التخاطب والتنسيق فيما بينهم بواسطة الرسل والمبعوثين وفرسان يمتطون صهوات جياد تسابق الريح .

انشغل فريقهم فى إعداد الأمتعة استعداداً للانتقال إلى موقع جديد نحو الخطوط الأمامية. انهمك أحد الملثمين يسرّج جمله ويخاطب زميله بقصة ذات معنى تعمد أن يحكيها بصوت عال حتى يسمعها لغوما:

ـ يحكى أن فقيهاً ماكراً اتخذ من التعلل بقراءة القرآن والاختفاء وراء الكتب ذريعة لتبرير تقاعسه كلما نشبت معركة أيام الحروب القبلية. ويقال أن جماعته أبيدوا عن آخرهم فقبض عليه رجال القبيلة المعادية حيّاً وهو يدس رأسه فى القرآن متوقعاً أن يشفع له كتاب اللّه ويعفيه من القصاص. ولسوء حظه فإن القبيلة المعادية كانت مجوسية وحاقدة على دين المسلمين (من تلك القبائل الزنجية المتوحشة التى تعيش وراء النهر) فأخضعت الفقيه الخبيث لعذاب أليم فى محاولة لانتزاع اعتراف يخص المواقع التى تخبىء فيها القبيلة الصحراوية كنوزها، ولما كان الفقيه الأبله يجهل مواقع الكنوز فقد تعرض للهلاك: قطعت القبيلة المجوسية أطرافه، وفى رواية أخرى أنهم أوقدوا ناراً أمامه وتعمدوا أن يشووا كل طرف يقومون بتقطيعه من جسمه ويأكلونه إمعاناً فى التشفى! هىء ـ هىء ـ هىء.

قال الرجل الثانى وهو يرمق غوما من طرف خفى:

ـ الصباح رباح. هذه حكايات لا تليق بهذا الوقت.

ولكنه لم يلبث أن أعقب تعليقه بضحكة مقتضبة.

أقبل مهمدو بوجه يعلوه الغبار. همس دون أن يلقى بتحية الصباح:

ـ لا تعرهم اهتماماً. علاقة الدهماء بالكتب وبأصحاب الكتب علاقة عداء دائماً.

عاد الملثم الأول يقول بعناد:

ـ فقيه آخر صاحب قبيلتنا فى الزمان القديم فى غزوة إلى الأدغال. مشى فى ذيل القافلة ولم يفارق الخطوط الخلفية طوال الرحلة مدعياً التزام رحاب اللّه متذرعاً بقراءة الآيات وشد أزر المقاتلين بالقرآن. هكذا كان يردد كلما دعوه للاشتراك فى

القتال : «سوف أشد أزركم بالقرآن» وبالطبع نجا من الموت . ولكن هل تعرف ماذا حدث له بعدها؟

صمت ورفع رأسه عن جراب الصوف وخاطب زميله وهو يحدج غوما :

ـ الخوف لم ينقذه من المكتوب . اختبأ ثعبان سام فى جرابه ، ففتحه عند بلوغ أطراف الصحراء فى طريق العودة فلدغه الثعبان الشرس ومات على الفور.

تبادل نظرة مع زميله وتمتم مختتماً قصته:

ـ هاك الدليل على صدق ما يقال : الموت أقرب لنا من حبل الوريد!

لم ينظر غوما فى عينى مهمدو . ولم يشأ مهمدو أن يناقش قصة الرجل الاستفزازية حتى لا يسبب لغوما المزيد من الإحراج . . ولكن غوما كان قد سمع هذه القصة من قبل . الرجل تعمّد أن يحرفها الآن ويدخل عليها تعديلاً يخدم غرضه الخبيث . بطل القصة لم يكن فقيهاً . خطر له أن يخبر مهمدو بذلك ولكنه تراجع عن تنفيذ هذه الفكرة الطفولية .

فى الشمال سمع قصف مدفعى . أعقبه تصاعد ذيول الغبار فى الأفق البعيد. بدأت المناوشات مبكراً.

اقتضت الخطة أن يتحركوا غرباً ليدعموا المجموعة المرابطة على خطوط التماس بين الصحرائين الرملية والطينية . على المرتفعات الجبلية يمكن مشاهدة قوات العدو بالعين المجردة . أجبرتهم آلياتهم الثقيلة على البقاء فى المرتفعات الجبلية والاحتماء بالصحراء الصلبة . فى الأيام الماضية حاولوا مراراً التوغل فى الرملة ولكن الأرض الرخوة تحالفت مع المجاهدين فتكبدوا خسائر أليمة وتراجعوا إلى مشارف بحر زلّاف المتنقل . قبل أن ينضموا إلى رفاقهم وقعوا فى كمين.

فى الوادى العميق الذى تحيط به جبال رملية شاهقة أطل عليهم رجال الهجانة[5] الذين جندهم العدو فى الأسابيع الأخيرة للاستعانة بهم فى حرب

الصحراء، وحاصروهم فى قاع الوادى الكبير وبدأوا يطلقون عليهم من بنادقهم الطليانية الحديثة الصنع .

المفاجأة أربكتهم فى البداية وغمرتهم فى الفوضى والهوس . لم يستمر ذلك طويلاً . سيطروا على الموقف وانتشروا يحتمون خلف أشجار الرسو والأثل وجذوع النخيل والروابي الرملية المتناثرة فى قعر الوادى . استمر الرصاص ينهمر من قمم المرتفعات الرملية المطلة على السهل.

لاحظ غوما وجود بعض الأفراد من قبائل الزنوج من بين مجندى الهجانة فصدّق ما يتردد فى الآونة الأخيرة من قيام الطليان باستجلاب قوافل من جنود الأحباش للاستعانة بهم فى الاستيلاء على الصحراء . قيل أن الروم الخبثاء قالوا لهم لشحنهم بالحماس : «هذه فرصتكم لتأخذوا بثأركم من سكان الصحراء الذين أذلّوكم فى الماضى وباعوكم للتجار البيض القادمين من وراء البحار!» فانطلت الحيلة على الزنوج المساكين واحتكموا إلى حرابهم وتسابقوا معلنين استعدادهم لمقاتلة الليبيين والانتقام من مستعبديهم .

اعتصم بربوة صغيرة فى قلب الوادى كوّنها تراكم الرمال على جذع أثلة ميتة . التحق به أسوف زاحفاً على ركبتيه ويديه معاً ، فأثارت حركة المحارب الخبير إعجاب الأب . بعد قليل بدأ الرصاص ينثر فى وجهيهما التراب فعرف غوما أن أحد القناصة المنطرحين فوق قمة الجبل الرملى قد اكتشف موقعهما فطفق يسدد نحوهما بعناد مستهدفاً رأسيهما . صوّب غوما نحو مصدر الرصاص العنيد وضغط على الزناد مرتين . لم تنطلق الرصاصة فى المرة الأولى فعاود المحاولة . انطلقت الرصاصة ولكن الموقع لم يخرس . بل إن الرصاصة استفزت القناصة فسقطت أمام وجهيهما ثلاث رصاصات فى وقت واحد . أثار سقوطها الغبار فوق رأسيهما حتى غطى الشاب عينيه بيديه . لحظات وانقشعت الغيمة واتضحت الرؤية . ارتفعت الشمس . تصبب العرق على الجباه وشقت خيوطه الحارّة الأجساد المنهكة . بحث عن مهمدو فرآه ينحنى وهو جاثياً على ركبتيه فوق جسد رفيق أصيب بجروح . تبين

أن الجريح هو نفس الرجل الملثم الذى صب على رأسه سيل الاستفزاز ولفق القصص عن جبن العلماء فى الصباح . استمر تبادل إطلاق النار . لم يكن فى وضع يسمح له بالسخاء فى إطلاق النار . ثروته من الرصاص محدودة . حاول ألّا يضيّع الاحتياطى المتواضع وينفق الطلقات النفيسة عبثاً فى الهواء . طلقة طائشة قد تساوى العمر . التفت نحو الابن وتكلم ناصحاً :

ـ أحرص ألّا تضغط على الزناد سدى . حاول أن تتأكد من إصابة الهدف أولاً . ليس لدينا رصاص نضيعه فى الفضاء!

تولّى الرفاق حماية ظهورهم من الجانب الآخر . جاهدوا فى صد الهجوم من طرف الكماشة الآخر . انتشر الهجانة على المرتفع الرملى على طول الناحية الشرقية أيضاً.

لاحظ التراب يتناثر باستمرار قدام عينى أسوف بالضبط فعرف أن القناص الماهر قد استغل غشامة الفتى وحداثة خبرته بفن الحرب فركز عليه عازماً أن يصيبه فى رأسه . انتزع أسوف من معصمه وألقى به إلى الناحية الأخرى من المرتفع . حذره قائلاً :

ـ عليك أن تنتبه . يجب أن تغير من وضعك باستمرار حتى تفوت الفرصة على القناص الذى يستهدف رأسك!

ازداد اقتراب المدافع مع انتصاف النهار.

استمر التراشق دون أن يسفر على تغيير فى مواقع الطرفين .

حاول غوما أن يزحف إلى الأمام ليغير الموقع ويحتل شجرة نخيل تكفل لهما أغصانها الكثيفة وقامتها الواطئة مخبأ آمناً فانهمر الرصاص كثيفاً فأدرك أن العدو الشرس لجأ إلى استعمال الرشاش. عاد يقبع بجوار أسوف متوثباً ينتظر أن تحين الفرصة كى يعيد المحاولة .

انتصف النهار.

هدير المدافع يقترب.

اشتكى أسوف من العطش فتألم غوما وداس على قلبه ولم يعره اهتماماً. بدأت المدافع تقتحم الوادى. سقطت شظية شرسة على يمين غوما بمسافة ثلاثة أمتار ونصف فاهتزت الأرض وارتفع ذيل الغبار. سمع فارساً شجاعاً من جماعتهم يجلس على جـود ضامر وينادى بأعلى صوته: «الطليان يتقدمون. يفرشون الأرض ببسط من جريد النخيل ويصنعون الطرق لآلاتهم الشيطانية. اصبروا يا جماعة الخير! قريباً يأتى الفرج!».

ولكن عليهم أن يصبروا طويلاً حتى يأتى الفرج.

نظر الولد نحوه بعينين غائبتين يكسو مقلتيهما البياض. همس بخجل:

ـ لم أعد أستطيع. العطش!

داس على قلبه مرة أخرى وهو يقول:

ـ الصبر! تذرع بالصبر. كيف تنتصر على العدو إذا لم تنتصر على العطش؟

رقد الشاب على بطنه وصوّب بارتباك فلاحقه الأب بالتحذير:

ـ لا تطلق إذا لم تتأكد من إصابة الهدف. ليس لدينا رصاص نضيعه فى الهواء!

استقبل الابن شروطه التعجيزية بنظرة امتزج فيها اليأس بالألم بالسخرية المريرة.

هدير المدافع يهز الأرض.

اتسع مدى القصف وأصبحت القنابل الآن تسقط على سفح المرتفع الذى يشرف على الوادى من الشرق فأدرك غوما أن الجحافل تقع الآن على مسافة قريبة من الجهة المقابلة للمرتفع. سوف يقتحمون الوادى قريباً.

عاد الفارس الشجاع يطوف على المواقع ورصاصات القناصة المرابطين على القمة تلاحقه. صاح: «رفاق الجبهة الغربية فتحوا ثغرة للانسحاب. تراجعوا عبر

الوادى إلى الجنوب . احرصوا على أن تحموا ظهور بعضكم عند الانسحاب . القادة يأمرون بأن يتم التراجع على مراحل!».

مادت الأرض وتناثرت حفنة من الشظايا . سمع أكثر من صوت خلفه ينطلق بأنين أليم فعرف أن أكثر من مقاتل قد أصيب.

فى اللحظة التالية استطاع أن يصيب القناص الماهر العنيد الذى ظل يتصيّد رأس أسوف طوال اليوم . انتفض برأسه كالطائر ثم همد ورأى رأسه يرقد على الرمل فى سكون . ولكن هذا لم يحم ربوته من النار . واصل رفاق القناص الصريع يمطرونه تارة بإطلاقات البنادق المتقطعة وتارة أخرى بنيران الرشاشات المتواصلة .

صاح مهمدو خلفه :

ـ إنهم يأمرون بالانسحاب . حاول أن تتراجع زحفاً وسأحمى ظهريكما .

التفت فلم يبصر وجهه كما لم يعرف أين يقبع فهتف خلفه كى يسمعه أقرب موقع :

ـ انسحبوا أنتم وسأتولى حماية ظهوركم . النخلة التالية تبعد عنكم خطوات فقط.

رأى أحد الفرسان يجرجر على الرمال الرامضة جريحاً ملتحياً يرقد على جرد رمادى مشدود إلى ذيل الجواد بحبل من ليف النخيل . كان الجواد يعرج وينثر الزبد حوله على الأرض.

استحلب ريقه بصعوبة كي يبلل شفتيه اليابستين المتشققتين . تحسس غالون الماء الصغير المعلق على كتفه الأيمن تحت الكم الواسع . الغالون مغطى بقطعة من قماش الخيش لحفظ البرودة . الاقتصاد فى الماء هو أول الشروط . كان الغالون الصغير ممتلىء إلى نصفه فقط.

ازداد عنف القصف فتصاعدت سحب الغبار والدخان فوق الوادى . حجبت الرؤية فانتهز بعض المقاتلين الفرصة لتنفيذ جزء من خطة الانسحاب الشامل نحو الجنوب عبر الوادى المتعرج الطويل.

أبصر مجموعة من المنسحبين تتراكض برشاقة بين أشجار النخيل وتختفى عند المنعرج حيث ينحرف الوادى بحدّة إلى جهة اليسار نحو الجنوب الشرقى.

عاد أسوف يشتكى من العطش :

ـ لم أعد أستطيع . إنى لا أرى بوضوح .

نهره بقسوة :

ـ ما معنى «لم أعد أستطيع»؟ هذه لغة النساء.

ـ ولكن الظلام يحجب الرؤ ية .

ـ هذا وهم . أنت تتخيل.

طنت شظية عابرة فوق رأسه وانهمرت دفعة جديدة من الإطلاقات على الجزء العلوى من الربوة أمام عينيه . تدحرج إلى اليمين بضعة أشبار وسدد طويلاً قبل أن يضغط على الزناد ويفقد الرصاصة النفيسة . طارت هباء . الجسم ينز بالعرق ويفقد الاحتياطى من السوائل والرطوبة فينشر العطش الغيم أمام العيون ويحجب رؤ ية الأهداف . هو هدّه العطش فما بالك بالصبى اليافع الأخضر العود . ولكنه استمرّ يحتفظ بالقطرات فى الغالون لآخر لحظة سوداء . لا يستطيع أن يتبأ بمفاجآت المواجهة.

الحر امتص المزيد من الرطوبة فى جسميهما فرأى غوما شبح جنود العدو وهم يتنقلون على طول المرتفع مثل خيالات هلامية . لا يستطيع أن يصيب أجساماً تنشطر إلى اثنين وتزدوج كالأشباح فى الحمادة الحمراء.

فقد الولد صوابه وقال بلهجة اعتبرها غوما فى تلك اللحظة تطاول ووقاحة :

ـ رأيتك فى الصباح تدس غالون الماء تحت كمك!

التفت نحوه فأضاف الشاب بإلحاح وعيناه كساهما البياض:

ـ اعطنى جرعة واحدة! جرعة واحدة فقط!

داس غوما على قلبه حتى انبثق منه الدم وقال محاولاً ألّا يفقد عقله:

ـ لا يليق بالابناء أن يخاطبوا الآباء بهذه اللغة. هل جننت؟

ـ أريد قطرة! قطرة بدل الجرعة!

حاول أن يبلع ريقه ففشل. أضاف بصعوبة وهو يستجمع كل قواه:

ـ.. كى أبلل ريقى!

ـ هذا جنون. أين الرجولة؟ هل فقدت الرجولة؟ هذه لغة النساء!

حاول غوما أن يبل ريقه أيضاً. فشل أيضاً. تمدد على ظهره ونظر فى قرص الشمس الملتهب وهو يضع البندقية على صدره ويلتقط أنفاسه ويسترخى قليلاً. بدأت العينان تعجزان عن الإحساس بحدّة أشعة الشمس. ظلمة العطش تحجب حتى أشعة الشمس النارية.

فجأة وجد أسوف يهجم عليه.

قفز إلى جواره ومد يديه تحت كمه يريد أن يستولى على الغالون. كان الجنون يقفز من عينيه.

أبعده بحركة عنيفة وصاح:

ـ هل جننت؟

ولكن الشاب عاد وأمسك بالغالون بقوة وحشية. انقطع الخيط الذى يثبت الغالون إلى طرف منكبه واستولى الولد على الغنيمة. قفز غوما وانتزع منه الغالون ودفعه على الأرض كى لا يتمكن منهما العدو المتربص. انكفأ أسوف على ظهره ولكنه نهض وهجم عليه مرة أخرى فى عناد. تشبث بالغالون مرة أخرى. مضت لحظة وهما يتنازعان واقفين على طول القامة. ثم.. أصيب الفتى.

تلقى رصاصة فى جبينه. توقف عن المقاومة فجأة وترك له الغالون وهو يحدق فى قرص الشمس بعينيه الغائبتين التى يكسوهما بياض الجنون وفمه مفتوح على أتساعه.

لم يدرك غوما ما حدث إلا بعد أن أنهار أسوف وسقط على الأرض منكفئاً على وجهه. لحظتها أبصر خيط رفيع من الدم يسيل على الأرض فتمتصه الرمال العطشى.

احترق قلبه وهو يضجع بجواره. رفع رأسه فرأى ابتسامة ساخرة مرسومة على شفتيه اللتين يعلوهما الرمل والغبار. أسبل له جفنيه ومدده على الأرض ودفن قلبه المحترق بجواره فى الرمل الرامض وتناول بندقيته التى سقطت عندما تماسكا فى العراك.

سقطت قنبلة أزاحت رأس الربوة من الوجود.

الآن رأى الآلات الشيطانية وهى تزحف نحوه كوحش أسطورى. الآن رأى كل شىء بوضوح.

دفع بجثة أسوف أمامه وغطى بها رأس الربوة الزائلة من الوجود. صنع من أسوف سدّاً يحميه من الرصاص ووضع بندقيته فوق صرته وصوب.

ما زال يطلق النار عندما قبضوا عليه.

أكثر ما أدهشه أن احتياطى الرصاص لم ينفذ ومستوى الماء فى الغالون لم ينزل قطرة واحدة!

(6)

تساءل الجنرال بالبو وهو يلوّح بثعبانه المدهش فى الهواء:

ـ هل كنت تطمع فى منع تقدّم دباباتنا وسياراتنا المصفحة؟

ـ لا!

ـ هل كنت تتوقع أن تصمد فى وجه مدافعنا بطلقات بندقيتك البائسة؟

ـ لا!

ـ هل كنت تنتظر أن تقتل جندياً واحداً ببندقيتك العثمانية البدائية؟

أجاب غوما بعد تردد:

ـ ولكنى قتلت جندياً أو اثنين. . .

ابتسم الجنرال بتهكم وعاد يقول ملوّحاً بالعصا التي يقف على رأسها الثعبان:

ـ قتل جندى لا يعنى إحراز النصر. قل لى بشرف: هل كنت تنتظر نصراً؟

نكس غوما رأسه وقال باستسلام:

ـ لا.

هنا توقف الطلياني واقترب بوجهه نحوه شاهراً الثعبان المقزز الذى يجلس فى نهاية عصاته السحرية وقال جاحظ العينين:

ـ لماذا تحاربوننا إذن؟

صرّ على أسنانه وأضاف:

ـ لم أسمع ولم أقرأ فى تاريخ الحروب أن احتكم فريق إلى السلاح دون أن يكون له أمل فى النصر. فلماذا ترفعون السلاح فى وجوهنا ما دمتم لا تطمعون فى إحراز النصر؟

قال غوما بهدوء وهو يسحب لثامه على طرف أنفه:

ـ هذا واجبنا. كنا نؤدى واجبنا فقط.

ـ هذا غباء هذا ليس بطولة. لا يمشى فى الركب الذى يتحرك نحو العدم والموت إلاّ البلهاء أمثالكم!

صمت غوما فردد الجنرال وهو يتمشى فى الغرفة المستطيلة التى يتناثر فيها أثاث أنيق:

ـ تقول واجبنا دون أن يرف لك جفن. تصنع من جسد ولدك متراساً لصد رصاصنا وتفاخر بتأدية الواجب. هذه وحشية! أنت وحش!

لم يعلق غوما فساد الصمت.

استمرّ الطلياني المهيب يتمشى في الغرفة المستطيلة. توقف وتساءل في لهجة أخرى مختلفة:

ـ ألا تعتقد أنك تبالغ في القسوة؟ ألم يرق قلبك؟

وجد غوما نفسه يردد:

ـ لقد دست على قلبي.

ثم أضاف مستدركاً:

ـ أقصد أن للرجولة شروطها القاسية. ولا يليق بالرجل النبيل أن يرضع الماء من القربة كالمرأة أثناء الحرب!

سمع الجنرال وهو يجلجل بالضحك حتى رددت الجدران صدى ضحكته.

صمت. صمت يخرقه ارتطام حذاؤه الأسود الضخم على أرضية الرخام اللّماع.

قال متفكراً:

ـ بدو بلهاء! تدفعون بأنفسكم للتهلكة وتتوهمون إنكم تؤدون الواجب. الواجب في الدفاع عن ماذا؟ عن صحراء عارية لا أول لها ولا آخر. هيء ـ هيء ـ هيء...

ـ الصحراء هي الحرية!

ـ هيء ـ هيء ـ هيء... الصحراء هي الحرية!

ـ لا نستطيع أن نحتمل الحياة بدون صحراء!

ـ هيء ـ هيء ـ هيء... قالوا لي أنك شجاع ولكنهم لم يقولوا لي أنك حكيم أيضاً! يا لكم من مكابرين بلهاء!

صمت غوما فاقترح الجنرال وهو يلوّح أمام وجهه بثعبانه اللزج المزعج:

ـ لدي اقتراح: لماذا لا تتركوا لنا الشريط الساحلي وتذهبوا لتمارسوا الحرية وتعيشوا في الصحراء؟

اعقب ذلك بضحكة ساخرة.

انكمش غوما فى كرسيه. قال:

ـ نحن لم نعبر البحر ونأتى إلى دياركم.

ـ ولكنكم حاربتمونا فى الشواطىء.

ـ هذا واجبنا.

ـ ها قد عدنا إلى خرافة الواجب.

ـ لا نستطيع أن نطمئن إلى وجودكم خلف ظهورنا. لا بد أن نترك خلف ظهورنا صحراء من الماء أو صحراء من الرمل. ممارسة الحرية لا تطيب إلا إذا توفر هذا الشرط!

ـ أنت فيلسوف أيضاً. أين تعلمت كل هذا؟ على يدى الصوفيين الدراويش؟

ضحك بأعلى صوته كاشفاً عن أسنان حادة أسودت عند اللثة.

«أسودّت بسبب التدخين» قال غوما فى نفسه.

جلس على أريكة بجواره وقال وهو يضع رجلاً على رجل:

ـ إننا نعرف عنك كل شىء كما ترى. حتى هيامك بحفلات الدراويش وتجمعات ما تصرون على تسميته فى لغتكم «الصوفيين».

مضت ثلاثة أشهر قبل أن يجيئوا به مقيداً بالسلاسل إلى الحاكم العسكرى بطرابلس. قضى الأسابيع الأولى مع الأسرى فى سجون الواحات. ثم نقلوه إلى داموس مظلم فى جبل غريان ومكثوا به هناك قرابة الاسبوعين. شفى جرحه فى الكتف بسرعة لم يتوقعها. ثم جاؤا واقتادوه إلى العاصمة فى سيارة مكشوفة تحت ستار الظلمة فى ليلة مشبعة بالرطوبة.

تنفس الهواء برائحة السمك فعرف أن البحر قريب.

على صدر الطلياني المهيب لاحظ النياشين لأول مرة . سرق الثعبان الذي يعتلى عصاته كل اهتمامه فلم يلاحظ صدر الجنرال المتوج بالأوسمة والنجوم .

استمر يحاوره:

ـ رأيت أن محاورة محاربى البدو أمر مفيد بالنسبة لقائد عسكرى مثلى خصوصاً أولئك الملثمين المنتشرين فى الصحراء كالأشباح ولكنى، بكل أسف، أكتشفت أن أكثركم مرونة ينافس أكبر بغل فى العناد وصلابة الرأس!

طرأ تغير على ملامحه وهو يضيف:

ـ غراسيانى معه حق. أهل هذه البلاد لا يعرفون غير لغة البارود ولا ينفع معهم سوى القمع.

ثم مال نحوه قائلاً:

ـ هل تعلم أن موسولينى يفكر جدياً فى إعادته إلى البلاد؟ الدوتشى أقتنع أخيراً أن السلام لن يتحقق على ضفاف الشاطىء الرابع إلا إذا استعان بالسفاحين المتطرفين أمثال الجنرال غراسيانى. أما البلهاء أمثالى من المرنين والمعتدلين فنهايتهم قريبة.

صمت وقال بنغمة مرارة:

ـ كنت أراهن على الديمقراطية معتقداً أن المرونة مع السكان الأصليين سوف تحقق السلم. ولكن تطرفكم هزمنى وبدد أحلامى فى إحلال السلام.

نهض واقفاً وأعلن وهو يستقيم فى وقفته كأنه ينوى أن يؤدى التحية العسكرية أو يلقى خطاباً هامّاً:

ـ الآن بوسعكم أن تحلّوا نزاعكم مع غراسيانى!

وعندما انتهت المقابلة وهم بالخروج استوقفه عند الباب وأومأ بالحرس فى أن ينتظر.

اقترب منه وقال بملامح جامدة:

ـ قصة الغالون قاسية. ومع ذلك لا أخفى إعجابى بموقفك. إننا ننظر بالتقدير إلى الأعداء الذين يستحقون التقدير كما ترى.

وهدّده بالثعبان الذى يتلوى فى يده اليمنى. ثم انكشفت أسنانه المسودة فى الجزء السفلى، عن ابتسامة غامضة.

(7)

قال له ضابط المخفر الطليانى الأعرج وهو يطلق سراحه:

ـ نحن نحترم اعداءنا الشجعان. ولكننا لا نتسامح معهم أبداً إذا سولت لهم نفسهم العودة إلى رفع السلاح فى وجوهنا. هل تفهم ما أعنى؟

غوما لم يجب.

عاد على الفور إلى الجنوب طامعاً فى أن يلتحق بالرفاق ويعاود إلى رفع السلاح فى وجوه الغزاة ولكنه فوجىء بأن كل شىء قد انتهى.

التفاصيل سردها عليه مهمـدو الذى عاد إلى الواحة واعتصم بالمغارة.

وملخص القصة أنهم وقعوا بعد تلك الموقعة فى كماشة أخرى فحوصروا أياماً حتى اضطر مهمدو أن يحتكم إلى مهنته ويطلب النجدة من الجن. ركن إلى ربوة وطفق يقرأ التعاويذ ويردد الأوراد ويقطع أوصال آية الكرسى مخاطباً أقوى المردة حتى مطلع الفجر فلبى أعوانه النداء وتنادوا وجمعوا شملهم فى الصحارى المجاورة وهبوا إلى نجدته. قال أنهم جاؤا يركبون العجاج الكثيف وغطوهم بكساء من غبار وحجبوهم عن أعين العدو الذى يحاصرهم. فأمسك المجاهدون بأيدى بعضهم وانسلوا من بين أيدي الطليان فى وضح النهار.

ولولا أعوان مهمدو لما نجا منهم أحد يومها فعرفوا كيف يعطوا للعراف ما يستحق من التقدير وهم الذين أشبعوه إغتياباً وتهكماً وتقطيعاً.

هاموا على وجوههم فى الصحراء وتراجعوا إلى الواحات الجنوبية البعيدة. تشتت شملهم وصدرت الأوامر من الزعماء والقادة معلنة عدم جدوى الإستمرار فى القتال ناصحة بالقاء السلاح. هكذا قال مهمدو وهو يستضيفه بكأس شاى أخضر جيّد، زكى النكهة، متقن الصنع لم يذق غوما لمثله طعماً منذ شهور. لم يمدح

غوما نوع الشاى كما لم يثن على جهود العرّاف فى تحضيره وطريقة صنعه ولكن مهمدو رأى الامتنان فى عينى صديقه.

زحفت أمسية صيفية منعشة.

خبأت شعلة النار فى الموقد فعاد مهمدو يغذيها بالحطب. دخل المغارة وجاء بطبق من التمر الطازج. رطب موسم هذا العام.

قال وهو ينشغل فى كسر أعواد الحطب ويزيح زمالته المضحكة عن وجهه النحيف:

ـ لو رأيت وجه السويعدى ونحن نتخطى الكمين أثناء هبوب العاصفة لمت من الضحك. كان ممصوصاً مثل ليمونة معصورة. المسكين كان خائفاً.

لم يعلق غوما فأكد اتهامه:

ـ كان يمسك بيدى أثناء العبور. كانت يده ترتعش فى يدى وتقطر بالعرق.

تصاعدت ألسنة النار فحجبت رؤية الواحة الهاجعة باستسلام. ألسنة النار اعتدت على سحر المساء.

اطلق ضحكة عابرة وأضاف وهو يقتعد الأرض عازماً أن يجدد تحضير الشاى:

ـ بعد تجاوزنا لقواتهم قال أنه مدين لى بحياته. الكثيرون قالوا لى ذلك.

رأى غوما، فى ضوء اللهب، سحابة كئيبة تزحف على وجهه وهو يتهيأ لأن يعلن:

ـ ولكن الكثيرون، مع ذلك، لم تكتب لهم النجاة.

رمقه غوما بنظرة مستفهمة فحكى القصة بعد صمت قصير:

ـ احتلوا ونزريك وأقاموا فيها معسكراً للاعتقال. أعطوا الحرية للهجانة ليستبيحوا الصحراء ويطاردوا المجاهدين الذين هاموا على وجوههم وتاهوا فى البرارى بحثاً عن الماء والمأوى.

هلك البعض عطشاً وجوعاً وقبض رجال الهجانة الزنوج على أغلب الفارين وأتوا بهم إلى المعتقلات. هل تدرى ماذا فعل الطليان هناك، فى معسكر ونزريك؟

طرد ذبابة كبيرة ملحاحة واستطرد:

ـ اختاروا ثلاثة أو أربعة من كل واحة وقطعوا رؤوسهم ورفعوها على حراب البنادق وفوق الدبابات ودخلوا بها الواحات كى يرهبوا الأهالى ويكسروا روح المقاومة فى قلوبهم.

تمتم غوما بلا وعى:

ـ هذا فظيع!

ـ تعمدوا أن يقطعوا الرؤوس قبل الوصول إلى الواحات بقليل حتى يحافظوا عليها طازجة ويتفرج الأهالى على الدماء.

ـ هذا فظيع.

ـ.. دخلوا آدرار مع العشية. ورؤوس ثلاثة من أبنائنا تتوج مقدمة الدبابات والدماء تقطر من الجماجم الطازجة المعلقة فى الحراب.

أغارت الذبابة مرة أخرى وهى تطارد الضوء فأبعدها عن أدوات الشاى المفروشة قدامه:

ـ اصطف الأهالى فى طابور طويل وراقبوا المشهد بخشوع وسارعوا إلى ابعاد النساء والاطفال ولكن أم أحد هؤلاء الشهداء اقتحمت الطابور ووقفت أمام الدبابة حيث يرتفع رأس أبنها البكر وحجبت فمها بيدها واطلقت زغرودة نصر طويلة.

قضى على الذبابة السمينة العنيدة بضربة من المروحة وأعلن دون أن ينظر نحو غوما كى يرى تأثير قصته عليه:

ـ كانوا يتوقعون أن يغمى على الأم فاستقبلت رأس أبنها الشهيد بزغاريد النصر.

استعاد غوما صورة الرؤوس المرشوقة على حراب البنادق فشعر بالغثيان.

نهض وغاب خلف المغارة فسمعه مهمدو وهو يجاهد كى يكتم صوته وهو يتقيأ. عاد بعد قليل وتربع فى مكانه ولاذ بالصمت.

مهمدو لم يرحمه. أضاف:

- فى اليوم التالى استدعوا عبد الله الجاروف وولوه منصب المشيخة وبعد ثلاثة أيام قدّم لهم قائمة بالمجاهدين الباقين على قيد الحياة الذين اشتركوا فى الحرب ضدّهم..

فاصل صمت.

هبت نسمة شمالية منعشة.

-.. اعتقلونا واستجوبونا واطلقوا سراحنا قائلين أن الدوتشى لم يخصص لهم ميزانية لإطعامنا... الآن علينا أن نزور مركزهم كل يوم ونقيّد أسماءنا فى دفاتر أعدوها لنا خصيصاً كى نثبت وجودنا فى الواحة... سوف يطلبون منك أن تفعل ذلك أيضاً.:

فى الغابة الشرقية انطلقت أغانى الجنادب الليلية.

انتهت حفلة الشاى الأخضر بعد منتصف الليل.

جاء له العراف بالحصير والأغطية واستلقى هو فى مدخل المغارة.

غوما ليلتها لم ينم.

ظل جالساً يصغى للصمت وغناء الجنادب وطنين البعوض حتى طلع الفجر.

....

فى الصباح انطلق نحو الأفق الجنوبى حيث تراقص السراب على العراء مبكراً.

لم يمر فى طريقه على المعسكر كى يسجل اسمه فى دفتر الغزاة.

3 ـ الطوفان

(1)

انتهت مهمة شركة الحفر وتهيأت لمغادرة الواحة لو لم تحدث تطورات عرقلتها عن الرحيل. هذه التطورات لم تؤجل رحيل الشركة فقط ولكنها بعثت النشاط فى آدرار وحركت الركود الذى خيّم على الواحة فى الأسابيع الأخيرة فوجدها الأهالى الكسالى فرصة لترويض ألسنتهم على تناقل الكلام وإشباع شهيتهم التقليدية لترديد الشائعات.

فما أن أعدّ الغطاء واستقرت أسطوانة الأسمنت الضخمة فوق فوهة النبع حتى أمر كونسا بتشطيب ممتلكات الشركة والاستعداد للرحيل وقد قرر أن ينتقل بزهرته إلى موقعه الجديد فى الواحة القادمة. ولكن اقتحام ماريا المفاجىء لآدرار قلب خططه رأساً على عقب. ويبدو أنها فضلت أن تصنع له هذه المفاجأة «السارة» ـ التى لا يتقن عادة صنعها نساء غير الزوجات ـ بدلاً من أن تبعث له بكتب المؤلفين القدماء الذين طلبهم فى رسالته عملاً بنصيحة أستاذه الحكيم فى الاستفادة من هوميروس حتى فى البحث عن أنقاض المدن القديمة ومنابع المياه والأنهار. فهل جاءت مدفوعة بالشوق أم اشتمّت رائحة الخطر فى الأنف؟

كونسا على يقين أن للزوجة حاسة عبقرية تستخدمها فى إكتشاف مغامرات الزوج السرية. وبذرة العبقرية هذه كامنة فى أى امرأة ولكنها تتفتق وتتفتح وتنمو مع معاشرة الرجل تحت سقف واحد لأمد طويل. وبرغم اعتقاده أنه يعرف ماريا ولم يسبق له أن لاحظ فى تصرفاتها ما ينم عن وجود مثل هذه الموهبة إلّا أن فى قيامها

بهذه الزيارة المريبة ـ لتضبطه متلبساً بالحياة مع امرأة أخرى ـ يكمن الدليل على جهله بمواهبها الحقيقية.

المفاجأة أربكته وفوتت عليه فرصة «التخلص» من زهرة أو إخفائها فى بيتها بالحى القديم فاضطر أن يستقبلها ويجمعها بضرّتها تحت سقف واحد فى غرفته الخشبية بالمعسكر الواقع شمال مستعمرة الجن.

فى عينى ماريا قرأ الدليل الذى يقول أنها تعرف كل شىء!

جاءت بها سيارة تابعة للشركة من عاصمة الصحراء ونزلت آدرار مع الزحف الأول لعتمة المساء.

إفترشت زهرة المنادير على الأرض وأعدت طعام العشاء فلاحظ كونسا كيف تتبادل المرأتان النظرات. لم تفلح ماريا فى تقليد ضرتها على التقرفص فوق المندار، برغم أنها جاهدت فى المحاولة، فاكتفت بالجلوس راكعة على ركبتيها تسترق نظرات التأفف نحو زهرة. أما زهرة فظلت ترمقها بنظرة مختلفة: نظرة غامضة لم يستطع أن يقرأ فيها إلاّ تعبير خيل له أنه الفضول. أمّا بقية التعابير التى تحملها تلك النظرة العميقة فكثيرة وإن ظلت، بالنسبة له، خفية.

تعمدت ماريا أن تقتصر فى تناول المأكولات المعلبة وأعلنت أنها تخشى من الأمراض المحلية المستوطنة.

إلتقط قطعة من خبز التنور وغمرها فى المرق وهم بأن يأكلها فصاحت فى وجهه وهى ترطن بلغتها فى كلمات سريعة متلاحقة:

ـ ألا تخشى من الملاريا؟ ألا تخاف الإصابة بالبلهارسيا والدوزنتاريا؟ عليك أن تفكر بالأطفال. سوف تنقل العدوى إلى الأطفال.

توقفت اللقمة فى حلق كونسا واندهش كيف لم يصب حتى الآن بالأمراض المحلية برغم أنه لم يتناول مضادات حيوية أو وقائية كما لم يسبق له أن طعم ضد الملاريا.

رمقته زهرة بابتسامة ساخرة، ثم انتقلت بعينيها نحو ضرتها النصرانية وقالت نظرتها أنها تفهم كل شيء. المرأة تفهم المرأة حتى لو رطنت بلغة الوطاويط، حتى لو لم ترطن بأي لغة على الإطلاق.

هكذا **ترجم** كونسا لنفسه نظرة زهرة في تلك اللحظة.

سادَ صمت متوتر فشغل نفسه بمتابعة فراشة مزركشة تحوم حول نار الفنار الخافت.

طن البعوض أيضاً. عقبت ماريا على الطنين:

ـ سأمرض بالملاريا. ما في ذلك شك!

إنهمكت تفتح علبة طن جلبتها معها وأضافت:

ـ لم أستطع أن أتصوّر كيف عشت في هذه المتاهة طوال هذه السنوات.

صمت.

ثم:

ـ . . وتتهيأ للتصوف وعشق الصحراء وتطلب مؤلفات هوميروس وتيت ليفي . . .

صمت.

ثم في لهجة سخرية:

ـ . . . تريد أن تتمادى في العشق وتتبحر في التصوّف. . ها ـ ها ـ ها. . .

رمقت زهرة بنظرة عدوانية وقالت بحقد:

ـ . . وتعتقد أنك تستطيع أن تخدعني بترديد مثل هذه الأساطير عن جمال الصحراء. الواقع أني لم أطمئن إليك في يوم من الأيام.

أبعدت طبق الخبز بحركة عنيفة من يدها ولوحت بالتحدّي أمام نظارتيه بالضبط:

- . . هذه بشرى أزفها لك كي لا تنعم وتتباهى بانتصارك أمام هذه البدوية السيئة السمعة وتقول أنك خدعت ماريا كابريوس!

تصاعد التوتر وتوقف كونسا عن المضغ. لاحظ أن زهرة ترمق ضرتها الآن بنظرة أخرى: نظرة وحشية!

. . . .

مرت الليلة الأولى بسلام فهنأ كونسا نفسه على حكمته وقدرته على ضبط النفس وتهدئة الأجواء بين الضرتين فقام مزهواً بمواهبه وتنازل لماريا عن سريره لأنها تخشى أن تنام على الأرض فتلدغها الأفاعى أو تلسعها العقارب واختار هو أن يرقد فى العراء المقابل للكوخ.

فى الصباح خذلته مواهبه وانفجر الموقف.

مع الأصيل تفرج العمّال على مشهد لا يخلو من متعة وطرافة، إذ يروق لمعشر الرجال دائماً أن يتمتعوا بالفرجة على عراك امرأتين: كانت المرأة النصرانية ترطن بلغتها الرقريقية العجيبة وهى تحاول أن تمزق وجه ضرتها التى استطاعت أن تمسك بها من شعرها وتبعدها عن ملامسة وجهها بمسافة طويلة، فلم تتمكن ماريا من الوصول إلى وجهها وأيقنت أن يداها أقصر مما توقعت. وكلما ضاعفت جهودها فى المحاولة كلما ازداد يقينها بعجزها الناجم عن قصر اليدين. فى الوقت الذى يحتدم فيه الشجار بين المرأتين كان كونسا قد تورط فى مواجهة أخرى أستعملت فيها الأيدى والقبضات مع مساعده ماريوس. والسبب يرجع إلى افتضاح أمر ماريوس واكتشاف كونسا للمكيدة التى حاكها ضدّه بمراسلة ماريا وتقدم التقرير الوافى عن زواجه من زهرة وتسليم روحه لـ «شيطان المسلمين» على حد تعبيره فى رسالته إلى ماريا التى عثر عليها كونسا فى حقيبتها عند قيامه بتفتيشها فى عتمة الفجر.

والمدهش أن أحداً من العمال الأوربيين أو من أهل الواحة لم يتقدم لفض النزاع وتفريق الأطراف المتعاركة حتى جاء مغرى وتطوع للفصل بين كونسا وزميله فتشجع مدهوب السردوك وقام يفصل بين المرأتين الشرستين اللتين ظلتا تتنابزان بألقاب قبيحة كل بلغتها!

أسفرت المعركتان عن خسائر جسمانية بين كلا الطرفين تمثلت فى جروح وكدمات وخدوش مختلفة ومتناثرة على الأجساد خاصة فى أطراف الفريق الناعم. كما خسر كونسا العين اليمنى من نظارته الطبية السميكة.

هذه لم تكن خاتمة المعارك.

فى الليل اندلع الشجار بين الزوجين. تلقى كونسا عضة أليمة فى ذراعه الأيسر وفقأت له ماريا عينه الزجاجية الباقية فاضطر أن يتحسس طريقه زاحفاً على الأرض، باحثاً عن مفر من المرأة الثائرة.

هددته قائلة: «سوف ترى أيها الوغد. سآتى لك بالأطفال وألقيهم فى وجهك! وقتها سأتفرج عليك وأنت تعانيهما! سيجىء دورى كى أتحرر وأتمتع بالحياة!».

رأى الجميع أن الفصل بين الزوجين لا يليق فأخلوا لهما المعسكر وهيأوا لهما فرصة ذهبية للحساب. أما زهرة فهجرت المعسكر وعادت إلى بيتها فى الحى القديم منذ شجارها مع النصرانية فى الصباح.

ردد كونسا وهو ما يزال يزحف على الأرض أمام الكوخ الخشبى باحثاً عن نظارته المكسورة:

ـ مجنونة. مجنونة!

كانت تلاحقه بالركلات وهو يزحف على الأرض والعرق يتصبب على وجهه فى خيوط صغيرة.

(2)

برغم أن وفاة باتا لم تكن متوقعة أيضاً إلا أن المفاجأة كانت فى تدابير الترف وطقوس التكريم التى اتخذها الشيخ غوما لتنفيذ مراسم الدفن.

لم يجرؤ أحد بمواجهة الشيخ غوما بالدهشة. وحتى عندما قام آهر بالإعراب عن تعجبه من فخامة هذه المراسم ولمّح من طرف خفى إلى أنه يرى أن المبالغة فى المراسم التى يحرص الشيخ على تنظيمها لا تليق بامرأة مثل باتا أجابه غوما

ببرود: «هذا واجبنا نحو الموتى. لا تنس أنها مطلقة حفيدى!».

نحرت الذبائح ونصبت خيمة خاصة للمأتم، ما لبث أن تزاحمت بالمدعوين والمعزين والمقرئين الذين انكفأوا على كتب القرآن ولحنوا الآيات الكريمة فى تراتيل صوفية حزينة.

تنازل غوما وتقدم الجنازة. بل أنه فعل ذلك بحماس أدهش الجميع وهو الذى عودهم أن يتحاشى الزحمة ويتجنّب الإشتراك فى المناسبات والاحتفالات والمآدب فأجزم العلماء بسيرة غـوما أن هذه هى المرة الأولى التى يتطوع فيها ويشيع جنازة ماشياً فى المقدمة.

إستمرت التلاوات وتراتيل القرآن أسبوعاً بعد اختتام مراسم الدفن وإيداع باتا لمثواها فى مقبرة شهداء العقارب، هناك، عند حذاء الجبل، حيث يرقد الكلب المجهول الذى مات بعد أن تناول عظمة مسمومة من يدى باتا نفسها.

الشيخ الجاروف تهكم فى مجالسه الخاصة: «..طبيعى أن يحسن الشيخ لعدوه. ألم تكن المرأة تناصبه العداء؟ شيوخ الصوفيين علموه هذا المذهب. الصوفيون يدعون إلى الإحسان للعدو. هىء ـ هىء ـ هىء..» ثم وهو يهمس فى أذن الزبرجدانى: «ألم أقل لكم أنه غريب الأطوار؟»

لا القاضى الزبرجدانى ولا الإمام مختار الساطور شاركه الضحك. إشتركت تظاهرة ضخمة من أهالى القبيلة والواحة معاً فى تشييع الجنازة لا إكباراً للمتوفية وإنما مجاملة للشيخ غوما.

الوحيد الذى لم يشترك فى الجنازة ولم يحزن على باتا هو: آيس!

هذا أثار استنكار آهر وخليل وجمع من العقلاء فوبخوه على هذا السلوك المشين. قالوا أن المتوفاة مطلقته وذكروه أنها كادت تصبح أماً لابنه البشع الذى يشبه الثعبان لو لم تتدخل الرحمة السماوية وتختطف روحه قبل ولادته وتنجيه من أبوة ابن مسخوط!

ولكن الفتى هز كتفيه بحركة لا مبالية وانطلق يتهامس مع أقرانهويتبادل معهم التعليقات المشبوهة والضحكات المكتومة.

غوما فقط تعمّد ألا يأتى على سيرة موقفه من الجنازة.

ولكن كيف تحايل الموت وداهم باتا فى كوخها المنيع المسيج بتعاويذ أمهر السحرة فى آير؟

لم تتعرض لمرض ولم تشك من علة كما لم يحدث أن عانت من وجع أو حتى صداع رأس. فعقب خروجها من حبس السبخة وشفائها من الدمامل العفنة والقروح الكريهة التى انتشرت على وجهها وجسدها إلتزمت العزلة، واختلت إلى نفسها وركنت إلى الوحدة فى كوخها الواقع فى طرف المستوطنة وتحاشت الإختلاط مع نساء القبيلة بعد أن تحاشت نساء القبيلة ورجالها وفتيتها الإختلاط بها أو حتى إطلاق التحية فى وجهها القبيح. قال الرواة: «أخيراً وجدت من يقف فى وجهها. أخيراً جاء العرّاف العجوز وصرع شيطان ابنة إبليس فخلص الدنيا من شرّها». ثم بدأت المرأة تضمر وتتضاءل وتنحف حتى استحالت إلى شبح. تخرج من الكوخ مع هبوط الظلمة وتقطع المسافة بين المستوطنة والغابة لتأتى بالبرسيم لأغنامها فى خطوات واسعة سريعة أثناء الليل. تجلب الماء والحطب وتأوى إلى كوخها حتى مساء اليوم التالى. قال الذين رأوها بالصدفة أثناء هذه الجولات الليلية أن وجهها كساه الشحوب والامتقاع، وجنتاها غائرتان حتى برزت العظمتان تاركتين تجويفاً عميقاً فى كلا الخدين. وأكثر ما أثار هؤلاء هو هذه الفجيعة التى شاهدوها تقفز من مقلتيها الحزينتين. وانتهوا إلى أن هذا الإنسان ليس باتا التى عرفوها. أنه خيال. إنسان آخر لم يسبق لهم أن عرفوه.

فى الأسابيع الأخيرة اعتصمت بالكوخ وكفت عن الخروج حتى فى الليل. مضت أيام أخرى قبل أن يتحلل الجسد وتفوح رائحتها فى الأكواخ المجاورة.

إقتحموا الكوخ فوجدوا هيكلاً عظميّاً حقيقياً يرقد باستسلام على الكليم المزركش الأحمر، كانت تصلب يديها على صدرها وترفع نظرة إلى أعلى (كأنها

توجهها إلى السماء البعيدة) يمتزج فيها تعبير الدهشة بالتوسل. أما الديدان فكانت تزحف وتخترق البقايا البائسة من اللحم اللصيق بالعظام النحيلة.

. . . .

مهمدو الوحيد الذى اكتشف السرّ.

زاره غوما بعد أيام من دفن باتا فقال له العراف الذى لم يعزيه ولم يحضر مراسم الدفن أيضاً:

ـ حدثونى كثيراً عن المراسم الفخمة التى شيعت بها جثمان الشيطان الرجيم.

حاول أن يهرب ببصره ولكن مهمدو حاصره بنظرة نفاذة من عينه الكابية التى يبدو أنها تنظر فى الفراغ، فقرر أن يحتمى بمدنه العجيبة التى شرع يضع مخططها على الأرض.

فاجأه العراف بالسؤال:

ـ هل تحبها؟

رفع نظره نحو صديقه فقرأ فى عينيه أن لا مفر من المواجهة ولا فائدة من التهرب.

هز رأسه بالإيجاب.

عاد العجوز:

ـ كنت تحبها طوال هذه السنوات، أليس كذلك؟

تبادلا نظرة أخرى قبل أن يستسلم غوما ويعترف إيجاباً بهزة من رأسه.

تمتم مهمدو:

ـ أحسست بذلك. طوال الوقت كنت أشك فى الأمر.

تمنى غوما لحظتها أن يرحمه مهمدو ويعفيه من الدخول فى التفاصيل فقرر لهجرة. جاءه جنّى على جناح الريح ودعاه إلى رحلة طويلة إلى تلك البلاد

الأسطورية التى لم يرها أحد ولم يسمع بها أحد غيره. تلك البلدان والمدن المجهولة التى حلم بها ووضع لها حجر الأساس أمامه على الأرض.

(3)

ـ لا خير فى من خان دينه وبدّله بدين آخر.

ألقتها ماريا فى وجهه وغادرت الواحة مهددة بأنها سوف تأتى له بالأطفال وترميهم فى وجهه أيضاً.

وروى مدهوب السردوك أنه سمع الرومية وهى تنازع زوجها بسبب عدم أحقيته فى أن يسلم نفسه لمقص أئمة المسلمين كى يفعلوا له ما فعلوا فى الختان. وقالت أن عملاً كهذا يخصّها أيضاً وكان يجب عليه كزوج يحرص على مشاعرها أن يناقش الأمر معها ويستشيرها فى الرأى بدل أن ينفرد بالقرار وينفذ أمراً يتعلق بالطرفين.

أكد هذا الحوار عدد من العمال الرقريق. كما دعم ماريوس الرواية معلناً أن ماريا استشارته فى الموضوع قبل أن تفاتح به زوجها أثناء المشاجرة.

مع المساء لجأ كونسا إلى العراء وقضى ليلته هناك.

أشعل سيجارة واستلقى على الرمل يفكر فى التطورات التى قلبت حياته منذ نزل الواحة.

أحداث كالحلم.

فكر طويلاً وهو مستلق على ظهره قبل أن يكتشف أنه يحب زهرة!

لم يخطر بباله أن يتعامل مع الأمر كله بجدية. تردد على بيتها فى البداية تمضية للوقت وقتلاً للفراغ، ثم تدخل الزبرجداني والإمام وفرضا **عليه** تلك المسرحية التى انتهت إلى الزواج، ولكنه لم يتوقع أبداً أن يتطور الأمر إلى حد أن يتعلق بها ويضعها فى كفة واحدة مع ماريا. بل ها هو الآن يضحى بماريا ويفضل زهرة عليها. أليست الحياة نكتة وعبث إذا كان بوسع الدعابة أن تقلب فيها حياة الإنسان وتغيرها

رأساً على عقب؟ أوليست الصدفة هى التى تقودنا من أنوفنا وتجتاز بنا دهاليز وانفاق لا خبرة لنا بها قد تفضى إلى الضوء وقد تؤدى إلى الظلمة الأبدية؟ فإلى أين يقود هذا النفق المظلم؟

الآن منحته الصحراء صفاء العقل وهيأت له كى يرى حياته السابقة فى ضوء جديد. أدرك أن الصحراء هى التى ساعدت هؤلاء الملثمين الحكماء على كبح جماح النفس فحققوا الإنسجام الروحى. يتصارعون مع أنفسهم منذ الطفولة لتدريبها وتحميلها على السكون والاستسلام. قال له القاضى الزبرجدانى أن الشيخ غوما قضى فى شبابه عاماً كاملاً فى الحمادة الحمراء لم يتبادل كلمة مع مخلوق ولم يذق طعماً للطعام باستثناء الكلأ والأعشاب، بل ولم يشاهد طوال هذه المدة إنساناً واحداً. فكيف لا يتمكن إنسان مثله أن يدوس على شهواته ويحتقر رغباته من السيطرة على نفسه؟ قال له القاضى أيضاً أن الشيخ كثيراً ما يفقد صوابه ـ برغم تجاربه القاسية ـ ويطلق السراح للغضب والانفعال. فما الذى يمكن أن يقوله عن نفسه وهو الذى عاش طول عمره راكضاً خلف السراب معمياً عن الالتفات إلى نفسه ورؤ ية الرذائل التى يتعاطاها ويمارسها.

إستطاع شيطان الدنيا أن يخدعه وجعله يغفل عن نفسه.

عاش غريباً عن الناس وعن نفسه.

الآن عرف أن الحقيقة هنا. فى الروح. فى لحظة واحدة مدت له الصحراء يد المساعدة وقادته من يده إلى الحقيقة. الحقيقة هنا. فى الروح. فى النفس، المتمردة، الثائرة، الجامحة. سوف يحاول ـ من الآن فصاعداً ـ أن يعد لها اللجام المناسب. سيلجمها. سيكبح جماحها إذا أراد أن يتعايش مع الحقيقة.

فى الصباح داس على بنزين اللاندروفر وتوجه إلى الحى القديم.

عانق زهرة وقال لها أنه يحبها إلى الأبد.

(4)

تعب الشيخ غوما وأصابه العجز والإعياء وهو يحث أبناء القبيلة على التنازل عن كبرياء الملثمين والنزول إلى الأرض وتقليب التربة التى تغرق الآن فى مياه النبع السخية.

لم يستطع أن يقنع سوى نفر قليل. بل أنهم اقتفوا أثره وحذوا حذوه ليس عن قناعة وإنما دفعهم إلى ذلك الحياء والمجاملة والاحترام ورغبتهم فى أن يكونوا عند حسن ظنه بهم. لاحظ إشمئزازهم وحذرهم من التلوث بالطين وتأففهم من السبخة وخوفهم من ملامسة الماء البارد! يأتون بصحبته فى الصباح ويخلعون نعل التمبا على مضض ليخوضوا فى الجداول الرطبة ويقفزوا فى الهواء وهم يصرخون بأعلى أصواتهم بمجرد لسعة صغيرة من ماء النبع البارد!

يتبادلون ضحكات عصبية وهم يخفون امتعاضهم خلف عماماتهم الكبيرة متحاشين أن تلتقى عيونهم بعينيه فى تلك اللحظات المتوترة.

كان النزول إلى الحقل عقاباً عسيراً خاصة بالنسبة لأولئك المدللين منهم الذين لم يألفوا الاستيقاظ مبكراً.

يجيئون إلى النبع وهم يتحسسون طريقهم بعيون يعميها النوم. يتناولون المعاول ويتظاهرون بمباشرة العمل فى فلاحة التربة وتقليب الأرض. ولكن هذه الأرض التى لم تتعود الإهمال ولا إستقبال المهملين سرعان ما تكشفهم وتفضح أمرهم: بدل أن يضربوا الأرض بالمعاول يصيبون أصابع أرجلهم فيصيحون بأعلى حناجرهم وكثيراً ما يسقطون على الأرض يتلوون من الألم. وتكون النتيجة أن يعود المصاب إلى الأكواخ وهو يعرج ويحجل!

حدث ذلك مراراً.

ولم يعرف الشيخ عما إذا كان ذلك حيلة جديدة ابتكروها للماطلة وللتخلص من العمل فى الحقل تعفيهم من مجاملته أم أن الغشامة والجهل بالفلاحة هو السبب.

إنهم كالأطفال. لقد احتكموا إلى أساليب الأطفال فى المدرسة الذين يعمدون إلى دق أرجلهم بالأحجار كى يجد لهم المعلم مبرراً يعفيهم من المدرسة.

والواقع أن غوما لم يجد حماساً فى الكبار والعقلاء فى القبيلة كى يتواضعوا ويحرثوا الأرض فكيف يطمع فى أن يجده لدى الشباب والفتية والطائشين؟

حتى الشيخان آهر وخليل يماطلان ويتكاسلان. قال لهم فى آخر اجتماع حضره الوجهاء: «إذا لم تفعلوا شيئاً لدفع هؤلاء المكابرين للإنخراط فوراً فى الزراعة فإنى لا أرى لكم مستقبلاً غير الفناء الأكيد». وارتدى نعله وانطلق إلى أنقاض نخلته المقدسة!

وها هو الآن يقف وحيداً يستصلح العراء ويغمر الأرض البور العطشى بالماء. وقف كى يلتقط أنفاسه. كان يشمر على ساعديه ورجليه معاً، يمسك بمعول طويل المقبض وقدماه تغوصان فى الوحل والطين المملح بالسبخة الحارقة. رأى كوكبة من المعممين قادمة من مستوطنة الأكواخ تتجه إلى السوق. تعمدوا أن يسلكوا أبعد طريق ـ يمتد إلى أقصى الشرق ـ كى يتجنبوا المرور على الحقل منعاً للإحراج. لانت أشعة الشمس ورحم قرصها الملتهب الكائنات والأرض مع انكفائها نحو قمم التلال الرملية الممتدة جنوب غرب الواحة.

من جهة الغابة لاح وفد مهيب. راقبهم وهم يعبرون العراء الفاصل بين الغابة ـ ناحية عين الكرمة ـ والأراضى المستصلحة بعد اكتشاف النبع.

لم يستطع أن يتبينهم حتى اقتربوا. ضم الوفد القاضى الزبرجدانى والإمام مختار الساطور يتقدمهم الشيخ آهر. بعد قليل أبصر شبح الشيخ خليل يطلع من الشرق قادماً من الأكواخ.

غسل أطرافه الملوثة بالطين وأغلق صنبور الماء فسمع القاضى يهتف ممازحاً:

ـ إذا رأيت فرسان الصحراء تتطاول فى الزراعة فاعلم أن الله سوف يغرق الدنيا بالسيل. أم إنى على خطأ يا جماعة؟

أطلق العنان لضحكة متوترة فحاول الإمام أن يشد أزره بضحكة مماثلة. اتخذوا مجلسهم خلف جدار الأسمنت الذى أقامه رجال كونسا حول فوهة البئر. تحلقوا حول أدوات الشاى التى أصبح الشيخ غوما يحتفظ بها فى النبع. وصل خليل فتولى الإمام الساطور تحضير الشاى.

أخذ القاضى زمام المبادرة:

ـ الحق أننا كنّا نسعى منذ زمن بعيد لتنفيذ هذه المهمة. ولكن المشاغل كما تعلم . . .

لم يفاجأ غوما فواصل الزبرجدانى وهو يمسح العرق على صلعته بمنديل مخطط:

ـ مصالحة المسلم إذا تخاصم مع مسلم واجب كل مسلم. هذا ما تقوله الشريعة . .

انتظر غوما زيارة الوفد المهيب لأنهم سبق وأن زاروا مهمدو وحاولوا أن يستميلوه ويستعينوا به للتأثير عليه ولكن العجوز خيب أملهم وقال لهم بالحرف: « . . إذا كنتم تعتقدون أن ثمة من يستطيع أن يؤثر على الشيخ غوما فأنتم واهمون. اعلموا أن لا أحد فى الدنيا يمكنه أن يحمله على فعل ما لم يقتنع بفعله. . » . هكذا أخبره العجوز فتركوه خائبين وغادروا المغارة غاضبين.

استمر القاضى:

ـ قلنا أنه من غير اللائق أن تستمر القطيعة بين شخصين وقورين أمثالكما يكن لهم الناس الاحترام. هذا لا يليق أمام الناس. ما رأى الجماعة؟ هل قلت شيئاً خاطئاً؟

أيدوه بحركة جماعية موافقة من رؤوسهم مهمهمين بألفاظ مبهمة.

اعتصم غوما بمدنه الأسطورية التى بدأ بناءها على الأرض بغصن يابس.

أخذ صالح الزبرجدانى نفساً عميقاً قبل أن يواصل خطابه:

ـ . . خاصة وأن موقف الخلاف لم يكن جديّاً إلى هذا الحد . سوف يسحب كلامه ويعتذر عن وصف كلامك بالنميمة وتصفح أنت . المسامح كريم . . وينتهى كل شيء . وعفا الله عما سلف . أليس كذلك يا جماعة؟

همهم الجماعة بالموافقة.

ظل غوما منكبّاً على مدنه ، يبنى ويشيد ويخطط بهمة ونشاط.

سعل القاضى :

ـ هو قال لى أنك تؤاخذه على تعاون أبيه مع الطليان وتعاون جده مع القائمقام ولكننى قلت أن هذا غير صحيح . الشيخ غوما رجل مسلم لا يخالف تعاليم الشريعة . الآية الكريمة تقول : ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ فكيف يستطيع رجل حكيم مثله أن يؤاخذك على مواقف آبائك وأجدادك ويخالف القرآن . . .

تحدث بعدها القاضى طويلاً وتداعى آخرون من الوفد وهبوا لمساندته ومساعدته أما هو فغاب فى أزقة مدينته الأسطورية الحصينة ، وظل معتصماً هناك حتى هجم الليل.

(5)

تواصلت المشاحنات والمشاجرات بين كونسا ومساعده ماريوس وإن اقتصرت على التلاسن ولم تتطور إلى التقاتل بالأيدى كما فى السابق . هجر كونسا حياة المعسكر وانتقل إلى بيت زهرة واحتمى من مطاردات مساعده بعتمة الحى القديم . لم تمض أسابيع قليلة حتى تلقى كونسا مظروفاً أنيقاً من مكتب الشركة الفرعى بطرابلس دس فيه المدير خطاباً رسمياً ممهوراً بالأختام وتوقيع رئيس مجلس الإدارة يعلن له إنهاء خدماته من الشركة وطلب منه تسليم ما فى عهدته لماريوس.

لم يفاجأ كونسا ، ويبدو أنه كان ينتظر وصول هذا الخطاب منذ زمن بعيد . بل إنه شعر بسعادة غامضة وهو يتوجه إلى المعسكر ويشرع فى إعداد محضر التسليم والاستلام .

كان يعرف أن ماريوس لم يتوقف عن تزويد فرع الشركة بالعاصمة بالتقارير والمعلومات الحقيقية والملفقة طوال وجودهما فى الواحة . وبالتحديد منذ تعلق بزهرة وأشهر إسلامه حتى قدوم ماريا التى جاءت مدفوعة بتقاريره ووشاياته أيضاً . تنفس هواء الحرية وهو يغادر مقر الشركة إلى الأبد . سرح على قدميه فى العراء الجنوبى خلف الغابة وهام على وجهه هناك حتى انتصف النهار . فى طريق العودة قضى القيلولة فى الغابة .

استلقى تحت نخلة كثيفة وتوسد كوم من الرمل . أصغى لحفيف أشجار النخيل وهى تستجيب لمداعبات نسمة شمالية رقيقة . ثم عمّ صمت حزين لا يخرقه إلا طنين ذبابة عنيدة ظلت تحوم حول وجهه بإلحاح . قال فى نفسه أنه تحرر من العبء الأول وعليه الآن أن يستعد لمواجهة ماريا والتخلص من العبء الثانى . هى مجنونة ومؤهلة لأن تنفذ وعيدها فتأتى بالطفلين وترميهما فى وجهه . هكذا قالت وهكذا ستفعل .

ماريا أعند من حمار . مزاجها المتقلب وطبيعتها الهوائية تجعلها قادرة على تنفيذ أى فكرة مجنونة . تذكر كيف تلاسنا بعد زواجهما بشهور أثناء تحضير طعام الغذاء فى المطبخ . كانت تمسك بالسكين وتقطع البصل فأمرته أن يغرب عن وجهها فوراً وإلا فإنها سوف تضطر لتقطيع أوصاله بالسكين . لم يرضخ للتهديد فوجه لها كلمة استفزتها فهجمت عليه ووجهت له عدة طعنات تلقاها فى معصمه الأيمن . ما زالت آثار تلك الطعنات تزين ساعده حتى اليوم . قالت له بعد أن التأم الجرح : «.. هذه للذكرى. حتى لا تجرؤ على الوقوف فى وجهى مرة أخرى» . منذ ذلك اليوم بدأ يتخذ الاحتياطات ويحسب لأعصابها ألف حساب . فى مرة أخرى تشاجرا على شاطىء الجزيرة فى يوم صيفى قائظ هبت فيه الأنسام اللافحة التى تعود أهل كريت أن يستقبلوها كل عام فى مثل هذا الوقت من شمال إفريقيا ويطلقون عليها فى قاموسهم المحلى : «سموم الصحراء الكبرى» . وكان لهذه الرياح تأثير غامض على أعصاب الأهالى يسميه العجائز : «أنفاس أطلانطيدا»

ويرجعه خبراء الطب الشعبى إلى تأثيرات ميتافيزيقية تسببها رياح الصحراء الحارة . يومها أيقن أن ماريا قد أصيبت بهذا المرض . فلم تتوقف عن التفوه بالشتائم واللعنات منذ الصباح . تشاجرت مع أمها قبل الخروج إلى الشاطىء . وتشاتمت مع جارتها بسبب الكلب . وتلاحمت معه فى عراك بالأيدى أمام المصطافين . حاول تهدئتها فتمادت وتناولت دورا وألقت بها فى خضم البحر بجوار نتؤات صخرية وذلك كى تعبر عن حقدها عليه وانتقامها منه . ساعده فى إنقاذ الطفلة عدد من المصطافين الذين أجمعوا أن زوجته مجنونة ومكانها الطبيعى ليس التسكع على الشاطىء وإنما مستشفى الأمراض العقلية!

وبرغم أن موسم هبوب «سموم الصحراء الكبرى» لا يستمر طويلاً إلا أن المرض بقى مع ماريا بل وتطور فقال له أحد الأطباء أنه عصابى . لاحظ التغيرات المفاجئة فى مزاجها . تتمتع بمزاج رائق ومرح الآن وبعد لحظات تكتئب وتحزن وتدس رأسها فى حجرها وتبكى بلا سبب . فى إحدى الليالى استيقظ على نشيجها فوجد أنها بللت الوسادة بدموعها . ولم يصبح الصبح حتى كانت فى مزاج غاية فى الروعة . الأطباء قالوا فى تقاريرهم أنها حالة نفسية على تسميتها فى الموسوعة الطبية بعد الحرب العالمية : «الاكتئاب الحضارى» . أما حكماء العجائز من أهل كريت فأكدوا أن السبب يعود إلى «أنفاس أطلانطيدا» القادمة من شمال إفريقيا ودعموا رأيهم بالأمثلة العديدة على حدوث إصابات من هذا النوع تتصاعد عادة فى مثل هذا الموسم من كل عام .

الآن فقط عرف أن هذه الأنفاس الأسطورية ما هى إلا رياح القبلى الجنوبية التى تهب على الصحراء فى فصل الصيف . وكانت حكايات العجائز الكريتيين وغرامهم المتوارث فى تأليف الأساطير عن شاطىء ليبيا العظيم يؤجج فضوله ويغذى فيه حنيناً غامضاً إلى الماضى البعيد حتى أكد له الأصدقاء الذين يؤمنون بتناسخ الأرواح أنه ولد ـ فى حياته السابقة ـ على الشواطىء المقابلة ونشأ هناك . وليس من المستبعد أن تكون قافلة تجارية قد ألقت بأجداده إلى الجزيرة فطاب له المقام واستقر فى كريت . يتضاحكون ويمضون فى ممازحته : «أصولك إفريقية . هذا

واضح . الدماء الزنجية تجرى فى عروقك . انظروا إلى شعره المجعد؟ انظروا إلى شفتيه المفلطحتين» .

ولكنه كان يسعى إلى الصحراء لأنه يحن إلى الحرية .

وقد درب نفسه طويلاً حتى كسب ثقتها واطمأنت إليه ففتحت له قلبها وهمست له بأولى أسرارها . أحس بالأمان والسكينة فقرر أن يسلم روحه لها . هو الآن بين يديها ، يحاول أن يفهم لغتها ويداعبها كي تبادله عشقاً بعشق .

يبدو له سكونها مخيفاً ، موحشاً ، يخفى تهديداً مجهولاً . ولكنها الآن ـ بعد أن قرر أن يستسلم لها ـ تحتويه بين أحضانها بحنان وتحيطه بالرقة والطمأنينة التي افتقدها وبحث عنها طويلاً .

انحرفت الشمس فى رحلتها فنهض وتوجه إلى النبع . وجد الشيخ غوما يتوضأ فى الجدول . عدل فى وضع نظارتيه على أنفه وطلب منه أن يوافق ويخصص له قطعة من أرض الحقل .

(6)

انتقلت شركة الحفر للبحث عن الماء فى موقع جديد بوادى الآجال وخلفت كونسا وراءها .

لم يفت الأهالى أن يمرنوا ألسنتهم فى أوقات الفراغ . قالوا أن الرقريقى أصابه مسّ . وأضافوا وهم يحتمون من حر الشمس بظل العشية : «كنا نعرف أن جيرته لمعشر الجن لن تنتهى على خير» . وعقب آخرون فأكدوا أن شخصان وراء اللعب بعقل الرومى هما : القاضى والإمام!

الوحيد الذى لم يجد صعوبة فى معرفة مرض كونسا هو الشيخ غوما . فمنذ وصوله للواحة وهو يراقب قلقه وتصرفاته فأدرك أن الرقريقى يتململ ويتمرد بحثاً عن شيء نفيس ضيعه ويحاول أن يسترده .

نظر إليه طويلاً من تحت لثامه عندما جاءه فى ذلك اليوم وطلب منه أرضاً للاستصلاح . وقال له وهو يقرأ فى عينيه :

ـ لا تنتظر من الصحراء أن تعطيك الخلاص . لا شيء ينقذك من نفسك أبداً .

ابتسم كونسا ولكن غوما كان يشك فيما إذا استطاع الرقريقى ـ بلغته العربية الركيكة ـ فهم فكرته .

كونسا الآن يرتدى جرداً ناصعاً أنيقاً ويتسكع بخيلاء بين بيته فى الحى القديم والحقل حيث ينهمك كل يوم فى رى الأرض واستصلاح التربة البور العطشى منذ مئات السنين . أمّا أيام العشية فيقضيها فى السوق أو بجوار المتسوّل عند الجامع .

كانت علاقته بالشحاذ المقعد ، الأعمى ، حميمة جدّاً .

منذ يومين جاءه القاضى وأخذه من يده كى يبتعد به عن المتسول وقال له :

ـ بلغنى أنك تنوى الدخول فى التصوف . أعلم أن اعتناق الإسلام لا يعنى ترك الدنيا والهروب إلى التصوّف . الحديث الشريف يقول : «أعمل لدينك كأنك تعيش أبداً وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» . فهل فهمتنى؟

أجابه كونسا بأنه لا ينوى التصوف ولا يريد غير الطمأنينة . هنا هتف الزبرجدانى :

ـ أرأيت؟ ها أنت تتحدث بلغة المتصوفة والدراويش . الطمأنينة لا توجد إلا فى قاموسهم . النبى يحث على أن تعمل للدنيا . . .

ولكن كونسا كان قد انسل ودخل الأزقة المظلمة وترك القاضى واقفاً . ضرب الزبرجدانى كفّاً بكف وصاح : «لا حول اللّه . حقاً أن جيرانه من الدنيا السفلية استطاعوا أن يؤثروا فى عقله!» . التفت يميناً ويساراً وقال يخاطب نفسه بصوت مسموع : «يشيعون مسئوليتى عما حدث للرجل . لست مسئولاً إذا تدروش المموسين!» . ثم توجه إلى الجامع .

أما كونسا فصعد الجبل من الطريق الملتوى وزار مهمدو . مكث هناك حتى تزحزحت الشمس عن موقفها العمودى فنزل الجبل من الناحية الجنوبية العمودية مقرراً أن يلتحق بالحقل .

فى الطريق مر عليه أحد الفلاحين الذين سبق وأن عرفهم فى الماضى واحتسى معهم بعض أقداح من «عصير النخيل» الشيطانى . تطوع ودعاه للجلوس خلفه على الحمار الهرم مبدياً استعداده لتوصيله وتسليمه سالماً لحقل الشيخ غوما . لكز الفلاح حماره المنهك وقال مستعيداً الذكريات :

ـ كانت أياماً حلوة . كم شربنا فى تلك الليلة؟ أربعة قلل مرة واحدة! قلل مضى على تخميرها شهور وشهور . يا ربى . . تلك كمية تكفى لجعل آدرار كلها تمشى بالمقلوب! هىء ـ هىء ـ هىء!

نخس حماره بمهماز خشبى وبصق المضغة وأضاف مبتسماً :

ـ أهنئك على مفارقة ذلك الرومى المتغطرس . ما اسمه؟ ماريو . . س. ماريوس. لعنة الله عليه . إنه يكره الإسلام ويحقد على المسلمين . قال لأحد المزارعين مرة أنه ينوى أن يذهب إلى بلادكم ويجمع جيشاً ويأتى به كى يقطع رؤوس الفلاحين الكفرة! هىء ـ هىء ـ هىء! هل تتصوّر : نحن كفرة!

بصق اللعاب الرمادى مرة أخرى وواصل ثرثرته :

ـ هكذا ترجم مذهوب السردوك رطانته . ولكن المزارع لم يغضب من الرومى بقدر ما غضب من السردوك المسلم الذى يرضى لنفسه أن يعمل تحت أمرة رومى ينوى ذبح المسلمين . أم أنى على خطأ يا كونسا؟ قل لى بالله؟ . . نسيت أن أقول لك . البارحة تجرعنا قلة ونصف . لدينا قلة أخرى نخبئها للظروف الطارئة . ما رأيك لو نجتمع عليها الليلة مثل أيام زمان . القمر سيكون ساطعاً كالنهار . . . سنحتفل بانتصاف الشهر واكتمال البدر . نحن نفعل ذلك كل شهر . . عاداتنا . هل تأتى؟ أخبرنى عن قرارك فى طريق عودتك من حقل الشيخ غوما . هىء ـ هىء ـ هىء!

وعده بحضور حفل استقبال منتصف الشهر القمرى احتفاء بالبدر الفضى وانطلق يعبر الغابة شاقاً طريقه بين أدغال الديس وأحراش النخيل.

ابتسم الفلاح ببشاشة وهو يراقب قامة الرقريقى القصيرة ، وجسمه المكتنز

المتلحف بالجرد العربى فيبدو فى مشيته ، وهيئته ، ووجهه المتوج بنظارتين مطلتين من خلف الجرد ، مضحكاً وظريفاً!

ولكن كونسا وإن نوى حقاً حضور «الليلة الفضية» إلا أنه غرق فى همومه وهاجر بعيداً ، اجتاز الصحراء الكبرى فى طريقه إلى ما وراء البحار! طافت بمخيلته ـ وهو يمشى الآن بين الأحراش ـ كيف لم يكتشف هيامه بالتاريخ وولَعه بالحضارات القديمة إلا متأخراً عندما أشرف على إنهاء تخصصه فى كلية الجيولوجيا . قرر أن يبدأ من جديد ويلتحق بكلية التاريخ أو الأرخيولوجيا ولكن أمه أخبرته أنها لا تنوى الإنفاق على دراسته إلى الأبد . قالت وهى تجلس فى مواجهة شمس الأصيل كجزء من خطة طويلة الأمد لمعالجة الروماتيزم المزمن . تنشغل فى رتق ثوب وتنكفىء إلى الأمام وتتقوس محاولة أن تلضم الخيط فى خرم الإبرة : «.. لم أرث ثروة عن أجدادى ، كما أنى لم أعثر على كنز يكفى لتغطية مصاريف دراسة أبدية!» . ثم تجاهد ببطولة كى تهتدى إلى خرم الإبرة حتى أنها تشهق بارتياح من أحرز نصراً ساحقاً عندما تنجح فى إدخال الخيط إلى الخرم . كانت تعانى من ضعف البصر إلى جانب الروماتيزم . ضعف البصر مرض متوارث فى عائلتهم .

يومها خرج من البيت وقرر أن يلتحق بمطعم على الشاطىء ليطعم سياح الجزيرة من يديه ويستعين بعطاياهم فى تنفيذ برنامجه فى دراسة التاريخ أو علم الآثار . ولكن الصدفة ألقت بأستاذه الجليل فارتطم به فى مدخل الكلية ونصحه بعدما علم بخطته : «كل العلوم متجاورة ومتشابهة . وما تعطيه لك كلية واحدة لن تستطيع كلية أخرى أن تعطيك أكثر منه . ما الذى تمنحه الجامعات برأيك؟ إنها لا تمنح سوى المنهج . منهج البحث فى المعرفة وفى الحياة . أما كيف يتم استعمال هذا المنهج فأمر يعتمد عليك كمتلقى وباحث . لديك الآن خطة العمل من كلية الجيولوجيا ، لديك البرنامج واستعماله يعتمد على مواهبك . تستطيع أن تستخدم المنهج فى أى علم آخر . فى التاريخ أو الأرخيولوجيا أو حتى الفلك!» . مسح البروفسور المهيب شعر رأسه وعدل من تسريحة شعره التى عبثت بها نسمة بحرية رطبة وختم نصيحته : «.. ألم أقل لكم أكثر من مرة أن الأرخيولوجيين وحتى

الجيولوجيين استفادوا من هوميروس وهيرودوت وغيرهم .. السرّ فى استعمال المفتاح السحرى إلى عالم المعرفة ، وليس فى العلم نفسه . هل فهمتنى؟» ثم طبطب بأبوة على منكبه وانطلق باتجاه البحر والريح تعبث بشعر رأسه الأشيب.

التحق للعمل بفرع الشركة بالجزيرة وانكب على دراسة التاريخ وأنقاض الحضارات القديمة فى المكتبات . تعرّف على أوركا الهيفاء ذات القوام المتناسق والأنف اليونانى الأصيل والعينين الناعستين الوديعتين فقرر أن يرتبط بها إلى الأبد . كشف الموت سرّه وعلم بنيته التى لم يبح بها لأحد فقرر أن يحبط خطته الخفية فجاء واختطفها منه وماتت تحت عملية جراحية لاستئصال الزائدة الدودية! كانت عملية ناجحة ولكنها أصيبت بمضاعفات أدت إلى نزيف . فهجر المكتبات وأخذ إجازة بدون مرتب وسافر لتأدية زيارات ميدانية للأنقاض فى بلاد اليونان . ثم هام على وجهه فى ايطاليا وفرنسا واسبانيا . عاد إلى كريت وكتب مقالته التى قادت له النجاح من أنفه : «الهلينية فى علم الآثار . أو تأثير الأسلوب اليونانى فى معمار البلدان المجاورة» . تلقى بعدها الدعوات من الجامعات والمعاهد لإلقاء محاضرات فى هذا الموضوع الذى اعتبرته إحدى المجلات المتخصصة اكتشافاً جديداً فى علم الآثار اليونانية . وقد جاءه الصحفيون والمخبرون الفضوليون الباحثون عن الإثارة بمجرد أن علموا أنه ليس أستاذاً متخصصاً فى الأرخيولوجيا.

بعد سنتين من البحث والسفر (زار برقة وتسكع بين أنقاض المدن الخمس) عاد إلى الجزيرة وكتب الحلقة الثانية من دراسته حول : « الهيلينية فى علم الآثار أو التأثيرات اليونانية فى معمار البلدان غير الأوروبية » تناول فيها مشاهداته وأبحاثه فى آسيا الصغرى وشمال إفريقيا . إنهالت عليه الدعوات لحضور المؤتمرات فتعرف على ماريا فى مؤتمر أثينا السنوى حول «مستقبل علم الآثار» وتزوجا بعد علاقة استمرت بضعة أشهر . وعندما عرض عليه مدير فرع الشركة تولى مكتب شمال إفريقيا قبل فوراً عازماً أن ينفذ خطته فى استكمال دراسة الحضارات التى تعاقبت على الشاطىء الليبى العظيم . بدأ نشاطه فى برقة . وحفر سبعة آبار ارتوازية ونقب بين الأنقاض ووضع اللمسات الأخيرة فى

مخطوطة «حضارة اليونان فى شمال إفريقيا» ولكنه لم ينشرها . ثم فازت شركته بمناقصات حفر عدد من الآبار فى منطقة فزان فبدأ فى مرزق وانتهى إلى آدرار.

لم يقدر نصيحة معلمه الحكيم تقديراً حقيقياً ولم يدرك حاجته إلى «الألياذة» و«الأوديسة» إلا الآن (أو فلنقل منذ سنتين بعدما تنفس هواء الشمال الإفريقى وذاق طعم الصحراء الكبرى ، أكل الترفاس الاسطورى وتمتع بماء الأنهار السفلية العذب . و . . . قرر أن يغيب فى الماضى. أن يصبح جزءاً من التاريخ القديم . خاصة بعدما أرهقه جنون ماريا واشتداد مرضها العصابى. يحن إلى دورا ومينى والقطة مور ولكن الحنين الخفى إلى الماضى أقوى وأشد. لقد أصبح هاجساً . مرضا . حمّى تستولى عليه وهو يستسلم لها ، لا يقاوم ، ولا يحاول أن يفلت من أسرها . أغوته الحمّى وقادته في الطريق الخفى . قال فى نفسه وهو ينزع الجرد الأنيق ويغرق فى الوحل المالح حتى ركبتيه: «. . الآن سأنتظر ماريا. ستأتى بالأطفال الذين تهددتنى بأنها ستلقيهم فى وجهى. سوف آخذهم وأدخلهم المدرسة . هىء ـ هىء . . . سأفوت عليها اللعب على أعصابى ومشاعرى كأب . . ها ـ ها ـ ها . . . سأدخلهم المدرسة مع أبناء الفلاحين!» . اكتشف أنه لا يحب ماريا. لم يعد يحبها من زمان.

لوّح بالمعول فى الهواء وهوى به على الأرض الرخوة مصدراً تنهيدة مكتومة . حاول بذلك أن يقلّد الفلاحين عندما ينهمكون فى تقليب الأرض.

(7)

. . ولكن ماريا لم تعد.

لم يصدق كونسا أن تتراجع ماريا العنيدة عن تنفيذ تهديد وعدت به . تلقى رسالة باكية من أمّه وأخرى من الطفلين معاً فى محاولة يائسة من جانبها لابتزاز مشاعره . لم تحتمل الانتظار أكثر فجاءت بعد شهور ولكن . . بدون أطفال.

قبلت بعد إلحاح فى أن تتنازل وتقيم معه فى بيت زهرة . قالت أنها جاءت

(8)

اضطر كونسا في الأيام الأولى أن يقيد زوجته بالحبال .

أصيبت بالهستيريا وألقت بكل ما وقعت عليه يديها في وجهه وهي تتلفظ بالألقاب البذيئة : يلمع في عينيها الجنون وتتطاير فقاعات الزبد على فمها وشفتيها الشاحبتين . حاول الجميع أن يبعدوا عن متناول يديها كل الآلات الحادة : السكاكين ، الفئوس، المقاص فوجدت طريقها إلى سلاح الشوك ! لم يستطيعوا أن يخبئوا شوك النخيل من وجهها أيضاً فضربت كونسا بعرف نخلة طرى شرس الأشواك فادمت يديه ووجهه وجرحت يديها أيضاً بسبب جهلها وسوء استعمالها لهذا السلاح !

أيده الفلاحون في ضرورة تقييد اليدين والرجلين . فضرب العقلاء الأكف بالأكف وقالوا : «ألم نحذركم؟ ها قد أصابها معشر الجن بمس!» .

أما قبيلة الشيخ غوما فاقترحت علاجاً آخراً كان شائعاً إلى وقت قريب لمعالجة مثل هذه الحالات . قالوا : «أقيموا لها حفلة غناء وسوف ترون النتيجة!» وكانوا جادين في اقتراحهم إلى درجة أن مغرى قام بوساطة نقل بها تفاصيل الاقتراح إلى كونسا نيابة عن الشيخ آهر شخصياً .

أصبح كونسا ممزقاً بين المريضتين . يداعب زهرة في الحي القديم ويهمس لها بعبارات العزاء بلغته الأصلية ثم يهرع ليمسح الزبد عن شفتي ماريا في الكوخ المقام على الأنقاض المستوطنة من قبل الجن ! أهمل الجداول وهجر حقل الشيخ غوما وتفرغ نهائياً لمعاناة المرأتين . حدث واستطاعت ماريا الافلات من عقالها فدخلت الغابة وقلبتها رأساً على عقب . حاولت في البداية اغواء الفلاحين انتقاماً من كونسا ومحاولة لحرق قلبه بالغيرة . ولكن جنونها والطريقة الاستعراضية التي نفذت بها خطتها أجبرت الفلاحين على الفرار من وجهها . قالوا همساً أنهم لا يستطيعون مخالفة الشريعة ومعاشرة رومية نجسة . «.. ليست نجسة فحسب ولكنها مجنونة أيضاً . يا رب اهدنا لطريق النجاة في الدارين : دار الحق ودار الباطل !»

ولما عجزت عن النيل من الفلاحين احتكمت إلى السلاح : فطاردتهم بالمعاول والفئوس وأعراف النخيل المكتظة بأشواك كالعقارب !

تعب كونسا من مطاردتها بين الأحراش فهب المتسول المقعد لانقاذه . جاؤوا به إلى الكوخ على ظهر حمار . أوقد النار وأخرج العدة من جرابة المخبأ تحت الجلباب الفضفاض . كواها بالسيخ الملتهب فى رأسها حتى كاد يغمى على زوجها بسبب رائحة الشياط ، مما حذا بالشيخ غوما أن يقوم بزيارة مفاجئة للرقريقى . وقف خارج الكوخ وأصغى لأنين الرومية قبل أن يهرع كونسا لاستقباله ممتقع الوجه . قال الشيخ مؤنباً :

ـ لا يليق بعالم مثلك أن يستعين بالدراويش فى معالجة المرضى !

ثم دعاه لجولة عبر أنقاض مستعمرته القديمة قبل حلول المساء وقص عليه تفاصيل ذلك الفقيه المحتال المدعو مبروك دبار ومنهجه فى علاج الممسوسين فأودى بحياة ابن مرزوق ، وانتهى الشيخ إلى أنه يميل إلى الاحتكام لمنهج الغناء فى العلاج! ووضع امكانيات القبيلة تحت تصرفه وانصرف قبل هبوط العتمة فتذكر كونسا ما يقوله الأهالى من أن جيرانه السفليين ينشطون بين الأنقاض مع الغروب فانسحب غوما وترك لهم المجال متعمداً .

وبرغم ثقة كونسا فى الشيخ إلا أنه تنفس الصعداء بعد عملية الكوى ولم يستطع أن يطعن فى منهج الشحاذ : تراجعت روح ماريا العدوانية واختفى بريق الجنون فى عينيها وحل محله استسلام وشرود . تعلو شفتيها الآن ابتسامة بلهاء ويقطر اللعاب من فمها المفتوح فى خيوط رقيقة طويلة تتساقط على أطرافها وفوق الأرض . فقدت الشهية وصامت عن الطعام فقرر كونسا أن يعود بها إلى الجزيرة بمجرد أن تتماثل زهرة للشفاء .

ولكن انفجار غطاء الأسمنت فوق فوهة النبع غير خطط الكثيرين .

(9)

أدّى الضغط المتزايد للماء إلى تدمير الأسطوانة الأسمنتية الضخمة التى أعدت لسد الفوهة ومنع تدفق الماء . ويبدو أن غزارة النهر فى المنابع السفلية تصاعدت وأدت إلى الإطاحة بالسدادة الإسمنتية فتصاعد الماء فى الهواء أقوى من

أى وقت مضى . فيبدو للمشاهد من بعيد مثل جبل زجاجى! كانت المياه العذبة صافية كالبلور وهى تشق الفضاء . غرقت الأراضى المستصلحة منذ اليوم الأول. وتنادى أبناء القبيلة واشتركوا مع الفلاحين وأهالى الحى القديم فى إقامة السدود الترابية التى كانت تنهار وتتداعى بسبب عنف الماء الوفير الذى انطلق الآن يتجول بحرية تحت السبخة ويتسلل عبر الأنفاق الأرضية الخفية ليطوق الواحة مقتفياً أثر الحزام الأخضر .

لم يتخيّل أحد فى يوم من الأيام أن يكون ذلك الطوق الأخضر البديع الذى يحيط بعنق الواحة هو فخ متقن الصنع .

ولكن الأهالى لم يهتدوا إلى الخطر المختبىء تحت الرمال فى الأيام الأولى . استمروا فى إقامة السدود الترابية التى كانت مياه النبع تقتحمها وتغرقها وتتسلل إلى المجارى السفلية المحيطة بآدرار ، ولم ييأسوا ويتوقفوا عن تشييد السدود إلاّ بعد أن جاء من أخبرهم بسقوط أولى الضحايا . انهارت السبخة عند أطراف الغابة أقصى الجنوب وابتلع الوحل أحد الفلاحين . توقفوا عن العمل وتقاطروا على مكان الحادث . بدأت المنطقة تتراخى وتترجرج وتتحول إلى وحل . سقط أحد الفضوليين فى البالوعة ولم يستطيع جمع الحاضرين أن يتمكنوا من انتزاعه إلاّ بواسطة حبل طويل ألقوه له قبل أن يغيب فتشبث به وجروه إلى شاطىء الأمان الرملى عند حدود الغابة .

ارتبك العقلاء ولم يلتزموا ضبط النفس فغذوا الفوضى وانعكس ذلك على تصرفات الأهالى . سارع الجاروف إلى مركز البوليس لابلاغ السلطات فأخبره ضابط المركز أن جهاز الابراق معطل بسبب خلل فى المحرّك . حثّه الجاروف أن يفعل شيئاً فدعاه الضابط إلى اللاندروفر وانطلقا بحثاً عن أحد العساكر من ذوى الاختصاص فى الميكانيكا واصلاح المحركات . ولمّا أبدى الضابط (وهو رجل وقور فى العقد الخامس من عمره تولى رئاسة المركز خلفاً للخرفاوى) شكّه فى قدرة حكومة الولاية على تقديم مساعدة هب الجاروف فى وجهه :

بوسع الحكومة أن تعيد تلك الشركة اللعينة على أعقابها لتسد فوهة هذا النبع الملعون . كنت أعرف منذ البداية أن قصة النبع هذه لن تنتهى على خير . وجد الشيخ غوما طريقة يخرّب بها آدرار ! تفضل يا سيدى : هل تريد دليلاً أقوى من هذا الدليل على نواياه تجاهنا؟

أوقف الضابط اللاندروفر خطوات من بيت العسكرى الميكانيكى ـ الواقع فى نهاية الحى القديم غرباً ـ وضغط على المنبه عدة مرات . أطل رأس زوجته ثم عادت وأغلقت الباب وأخبرتهم أن زوجها ذهب إلى الحقل .

لم يجدوه إلا فى الغروب فسهروا معه الليل وهم يثرثرون ويحتسون الشاى الأخضر دون أن يعلموا أن الأرض تميد تحتهم وأطراف الواحة تتآكل حولهم .

استمرت دائرة الوحل الرجراج تلتهم الأرض وتزحف وتتسع . فى المنطقة الجنوبية حيث أعلن الطوفان عن نفسه وظهر للعيان ارتفعت الكتل الطينية المالحة وتوسعت تعلوها طبقة كثيفة من الزبد ـ الذى تكوّن نتيجة ذوبان السبخة ـ ومضت تضيّق الخناق على الواحة الراقدة فى قلب الطبق المستدير .

انضم للجماعة فى مخفر البوليس القاضى والإمام وبعض الأعيان فتحوّلت السهرة لاصلاح المحرّك المعطل إلى اجتماع للوجهاء . قتلوا الليل بالثرثرة والهذر ولعنوا قبيلة الملثمين ونبعها وتذكروا الماضى وذكروا الطوفان الأول الذى حدث منذ ثلاث قرون عقب ذوبان ثلوج فأجأت الصحراء ـ ورأى فيها الكثيرون إحدى علامات القيامة ـ ولكنهم لم يسردوا ، فى جلستهم تلك ، أساطير تشير ، لا من قريب ولا من بعيد ، إلى تداعى السبخة وتراخى الأرض وانهيار تجاويف الملح مما يهدد آدرار بالخطر كما يحدث الآن .

ارتفع هدير المحرّك مع قيام الساطور بأداء آذان الفجر من ربوة المخفر فأبرقوا للمسئولين بعاصمة الولاية طالبين النجدة وتنفسوا الصعداء وهم يخرجون من المركز فى عتمة الفجر وينتشرون فى الأرض .

لم ينخفض مستوى ارتفاع الماء من النبع فعرف الشيخ غوما أن قوة الدفع من منابع النهر الجوفي لم تتغيّر . ازداد صفاء الماء المندفع في السماء وتلامع ، في ضوء أشعة الشروق ، كما تتلامع النجوم في الليل البهيم . تابعه من سفوح الجبال الرملية المطلة على المنخفض وتحسّر على جبل الماء الضائع . خيِّل له أنه يسمع هدير الماء وهو يرتفع في الفضاء ويعود ليخر على الأرض من هذه المسافة البعيدة . خيل له أيضاً أنه يسمع الهدير الجوفي للمنبع . شعر بنشوة غامضة وهو يحاول أن يفك رموز لغة الماء الخفية !

انتهى من تسابيح الصباح وأرسل آيس (الذى منعه الفيضان من التردد على المدرسة الآن) كي يحشد المشائخ والوجهاء لحضور اجتماع طارىء .

لم يتكامل العدد إلا مع الأصيل .

أبلغهم قراره بالاستعداد للرحيل والاعتصام بالصحراء الرملية . قال باختصار أنها طوق النجاة الوحيد ولا عاصم سواها من الماء . و. . انطلق باتجاه الواحة .

انحرف يميناً ، ومشى بمحاذاة السفح الرملي المهيب باتجاه الشرق ، ثم مضى ودار حول الواحة ونزل آدرار من الجهة الشرقية الشمالية . في الطريق لاحظ ابتلال الشريط الذي يلف حول الغابة وانتشار بقع كبيرة من الندى فعرف أن الماء يتسلل عبر مسارب السبخة القديمة ويأكل عنق الواحة .

وصل المغارة مع تراجع الحر وحلول العصر .

استقبله العرّاف مازحاً :

ـ ألم أقل لك أن نزول مولود لآل الجاروف سيكون نذير شؤم؟ هيء ـ هيء . . ألم أخبرك أن السيل سيأتي من الأراضي المنخفضة وليس من المرتفعات كما جرت العادة؟ هيء ـ هيء ـ هيء . . . سيغرق الدنيا وسيبتلع آدرار المجيدة . . . آل الجاروف هم لعنة هذه الواحة . . .

قاطعه غوما بصوت بارد :

ـ هل هذا وقت مزاح يا مهمدو ؟

ـ وهل يروق المزاح إلّا وقت الحرج؟ أرى أن حياة الاسترخاء فى الواحة قد أنستك طبائع الملثمين .

ـ ليس لدينا وقت نضيعه فى الهذر الآن . لملم متاعك وهيّا بنا .

ـ هىء ـ هىء ـ هىء . . إلى أين إنشاء اللّه ؟

ـ إلى أرض اللّه الواسعة . . إلى الصحراء الآمنة .

ـ لا عاصم اليوم من الماء يا شيخنا . هل أعد الشاى ؟

تجاهل سؤاله حول الشاى واستمر يتحدث حول الماء :

ـ معك حق . حتى الجبل ، يا مهمدو ، لن يعصمك من الماء !

ـ الجبل؟ آه . ومن قال لك أنى أسعى للنجاة؟ البارحة بلغت المائة وسبع سنوات . هل تعلم أنى بلغت المائة وسبع سنوات ؟ لم أبح لك بالحقيقة طوال السنوات الماضية حتى لا تقول أن مهمدو يخرّف وتطعن فى قواى العقلية . هل أعدّ الشاى ؟

ـ ولكنى أعرف جبلاً آخر لا يأتيه الباطل سينجينا من الماء . أسرع باللّه وكف عن المزاح .

ـ مائة وسبع سنوات . يحق لى الآن أن استقبل قدرى بشجاعة وصدر رحب . هىء ـ هىء . هىء . . .

نهض إلى كوم الحطب ببطء . تعثر فى مشيته حتى كاد يسقط على الأرض . لم يتعثر ، ولم ترتطم قدمه بجسم وإنما ترنح تلقائياً فقال غوما فى نفسه أن العجوز مؤهل حقاً لحمل المائة وسبع سنوات فوق ظهره . انحنى فوق الحطب وهو ما يزال يبتسم .

اقترب منه غوما وقال ضاغطاً على غضبه :

ـ هل تتعمد استفزازى؟ ألا ترى أن الوقت غير مناسب لإعداد الشاى ؟ أنا مضطر أن أقول لك أن آدرار تتآكل والماء ينخر حولها كالسوس . ليس لدينا وقت نضيعه . يجب أن تأتى معى . . .

ـ إلى أين إنشاء الله؟

ـ إلى الصحراء !

ـ هىء ـ هىء ـ هىء . . .

ـ هل هذا جواب يليق بهذا الموقف؟

وقف العراف فى مواجهة صديقه القديم ونظر فى عينيه لحظات فرأى الاصرار فى مقلتيه . أما غوما فقد رأى فى عينى العجوز الكابيتين الضعيفتين دموعاً حقيقية .

مضى على المواجهة لحظات كأنها يوم كامل . لانت بعدها ملامح العراف وقال وهو يخطو نحو مدخل الكهف ببطء :

ـ حسناً . سأفعل ذلك إكراماً لك . .

عاد من المغارة يتأبط جمجمة ناصعة البياض. نفس الجمجمة التى قالت الأساطير أن معلمه الشنقيطى خبأ له فيها نصيبه من كنز بئر العطشان قبل أن يبطش به القائمقام .

قال وهو يقف فى مواجهة الشيخ :

ـ هذه كل أمتعتى .

قال غوما فى نفسه أن مهمدو يستخدم الجمجمة البيضاء كتعويذه . ثم قال بصوت مسموع :

ـ ومن الأفضل ألا تحمل أمتعة على الاطلاق . هذه أول حكمة يتعلمها المرء من أهل الصحراء .

قال العجوز وهو يتحرك نحو المنحدر :

ـ هذا أول شروط الحرية . إذا تحررت من المتاع تحررت من عبء ثقيل إذا داهمك السيل . هذه حيلة تعلمتها أثناء رحلاتى فى الصحراء أيضاً . ولكنى لا أستطيع أن أفارق الجمجمة .

رفع بصره نحو غوما ، ويبدو أنه توقع أن يسأله غوما عن السبب ولكن الشيخ لم يفعل فقال العجوز فى نفسه : «يحاول دائماً أن يبلغ حدوداً غير متوقعة فى النبل . النبلاء يكتمون فضولهم» .

. هبط المساء ومشى غوما فى المقدمة . اختار الطريق العمودى الجنوبى كى يختصر الطريق وينفذ إلى السبيل الشرقى الجنوبى قبل هجوم الظلام . ترنح مهمدو مرة أخرى فمد غوما نحوه يد المساعدة . جلس العراف فوق صخرة كبيرة ونظر فى الأفق البعيد حيث تلتمع مياه النبع المفلوتة فى عتمة المساء . قال بهدوء .

ـ هذا مضحك . ما أفعله الآن مضحك يا شيخ غوما . يؤسفنى أن أخبرك بقرارى : لن أذهب إلى مكان !

كان غوما قد نزل القمة وقطع خطوات عبر السفح فعاد يصعد الجبل بيديه وقدميه معاً .

أنفاسه تتلاحق ، فلم يعرف العراف بسبب الأعياء أم الانفعال . وقف قدّامه لحظات ثم جلس على صخرة أخرى بجواره . قال العراف :

ـ بعد كل هذا العمر من الزهد . . تريدنى أن أفر من قدرى . هذا مضحك حقّاً . . من قال لك أنى لم أكن أنتظر هذه اللحظة ؟

ساد الصمت .

قال غوما :

ـ ولكن القرآن . القرآن يحذر المؤمنين من أن يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة .

الاحتكام إلى القرآن لم يقنع العراف . قال :

ـ القرآن يدعو المؤمنين أيضاً إلى الاستسلام ويعتبر الهرب من القدر تمرّد ضد إرادة الله .

ـ سبحان اللّه .

ـ سبحان اللّه .

ساد الصمت .

قال غوما :

ـ ليس لدينا وقت . سوف نغرق جميعاً . هل آخذك بالقوة؟

ـ هىء ـ هىء ـ هىء . .

ساد الصمت زمناً قبل أن ينهض العجوز ويزحف نحو المغارة . همهم باستسلام :

ـ سألجأ إلى قبرى . سبق وأن قلت للجاروف عندما حاول أن يبعدنى عن الواحة بالقوة : لن أغادر آدرار إلّا على محفة!

هجمت العتمة واستطاع الماء أن يحتل مساحات جديدة حول رقبة الواحة .

(11)

فى الطريق إلى كوخ كونسا لم ينس غوما أن يمر على المقبرة ويقرأ الفاتحة على روح أخته الزنجية وكلبه الصديق و. . . باتا!

الكوخ كان مظلماً ومهجوراً .

انحرف يساراً وعبر أدغال الديس الكثيفة متوغلاً فى الغابة شرقاً . اكتشف أن رقعة الطوفان قد اتسعت وأكلت مزيداً من الأراضى . قال فى نفسه وهو يمشى شمالاً : الليلة ستلتحم الدائرة وستقبض السبخة على ما تبقى من الأرض اليابسة !

بحث فى الظلام وكسر عوداً جافاً من شجرة رمان استعمله لاختبار الأرض أمامه . وصل إلى المكان الذى عبر من خلاله فى العصر فوجد أن الرطوبة قد

اقتحمته . استمر شمالاً حتى أطل على جماعة تنتقل بالمشاعل وتتجمع فى المنخفض. عرف منهم أن سيارة شحن قادمة من الشمال غرقت فى الأوحال وابتلعتها البالوعة ، فكسر غرباً ومشى حتى اقترب الليل من الانتصاف .

عثر على قطعة يابسة عبر منها إلى الشاطىء الرملى الغربى الجنوبى وتأكد أن الحلقة ستقفل قريباً وستصبح الواحة جزيرة معزولة بالأوحال والبالوعات .

وصل إلى سفوح جباله الرملية الآمنة مع انبلاج خيوط الفجر . وقف يصغى للصمت فسمع هدير النبع النائى . هدير مزدوج . صوت الماء المندفع من الفوهة ، وصوت آخر يصنعه ارتطام الماء بالطين وعودته إلى الأرض . هدير مزدوج مهيب وغامض . سكون الفجر يزيده سحراً وغموضاً . ترى من أين يتدفق الماء وإلى أين يذهب؟

غرس عصاة الرمان ، التى اهتدى بها فى طريقه ، أمامه فى الرملة وجلس فوق المرتفع يراقب جبل الماء المنهمر فى بصيص ضوء الفجر الشحيح . أخرج المسبحة وبدأ فى مداعبة حبيباتها المتآكلة من فرط الاستعمال .

اصغى لصوت الصمت وخرير الماء البعيد .

(12)

جاءه آهر وقال له أنه قبض على الفقيه المحتال.

تساءل فى اهتمام :

ـ الفقيه المحتال ؟

ـ مبروك دبّار . . هل نسيت مبروك ؟

ـ مبروك دبّار؟

جلس قبالته وقال ببرود :

ـ بلحمه ودمه . هل تصدّق ؟

تفرّس فى وجه آهر وتساءل فى نفسه عما إذا لم يكن الأمر مجرد دعابة . أضاف آهر بنفس البرود :

ـ قبضنا عليه متنكراً فى ثياب المتسوّل !

ـ المتسوّل ؟

ـ نعم . لم يكن مقعداً ولم يكن أعمى . هل تتصوّر ؟!

ـ يا ربى . كنت أعرف أنه شحاذ مشبوه . ولكن أين قبضتم عليه؟

ـ هنا . فى النجع .

ـ فى النجع؟!

توقفت أصابعه عن دحرجة حبات المسبحة تماماً فكوّرها فى قبضته ودسها فى جيبه . سرد آهر القصة :

ـ جاء طمعاً فى عطايا نساء قبيلتنا . برغم أن آيس يؤكد أن النساء هن اللائى قمن بدعوته لزيارة الأكواخ وأجرن حماراً وفلاحاً جاء به إلينا !

ـ يا رسول الله!

ـ سبقته الدعاية وأغرتهن مواهبه فى قراءة الغيب فوجهن له الدعوة !

ـ سترك يا رب !

ـ أنت تعرف النساء . كدن يمتن من الفضول والرغبة فى معرفة عما إذا كان أزواجهن ينوون الزواج عليهن . هذا هاجس يستولى على جميع النساء . نساءنا خاصة .

ـ لعنة الله عليهن .

هنا ضحك آهر فجأة وسقط اللثام عن فمه فانكشفت شعيرات لحيته الفضية وأضاف :

ـ لقد نسى المحتال أنه أعمى ومقعد فالقى بالخرقة السوداء التى تعصب عينيه

وانطلق راكضاً بمجرد أن سمع ببالوعات السبخة تلتف حول رقبة الواحة ! هل تعلم لماذا؟

غطى فمه بطرف اللثام وعاد يضحك وهو يختتم قصته :

ـ لأنه خبأ مدخراته هناك !

ـ المجرم . مدخراته من أموال الفقراء.

ـ نبهنى آيس إلى أمره فلحقنا به عند مشارف الأوحال المواجهة لعين الكرمة . حاول أن يقفز إلى البالوعة عندما رأى أننا كشفنا أمره .

ـ لم يكفه ما سلبه من الدخل والتحايل على عباد اللّه فقرر أن يعود إلى الواحة ليسلب آخر مليم ببدعة التسوّل هذه . المجرم !

ـ إنه يرقد فى كوخ آيس مقيد اليدين والرجلين بانتظار ما ستأمر به .

نهض غوما واقفاً فنهض آهر أيضاً . قال غوما :

ـ ليس لدينا وقت نضيعه الآن فى استجواب المحتالين . علينا أن نستعد للرحيل .

ثم استدرك وهو يمشى نحو الأكواخ التى دبت فيها الحياة وغمرتها الفوضى التى تصاحب الاستعداد للرحيل :

ـ ولكن العقاب واجب . لا بد أن ينال حقه من العقاب !

ثم همهم لنفسه :

ـ كنت أشك طوال الوقت . كدت اقترب من الحقيقة عندما علمت بما فعله بالرومية المسكينة !

(13)

ماريا اختفت قبل بداية الهوس بثلاثة أيّام .

فبعد عملية الكوى التى تعرضت لها من قبل دبّار عانت من الحمّى والقىء والهذيان .

سهر كونسا على رأسها حتى الصباح وعندما رأى أنها أغفت خرج يترنح لزيارة زهرة فى الحى القديم . عاد بعد ساعات فلم يجد ماريا . بحث عنها فى كل مكان ولم يعثر لها على أثر . دخل الغابة واستعان بالفلاحين فى البحث عن المريضة . أحدهم مال نحوه وقال فى فزع : «أخشى أن يكون لجيرانكم يد فى الأمر» . وعندما تساءل كونسا عن أى جيران يتحدث عاد الفلّاح يميل نحوه بعد أن بصق لعاب المضغة خلفه : «ومن يمكن أن يكونوا غير الجن والعياد باللّه؟ آن الأوان كى تفهم رأسك من رجليك يا كونسا . أنت الآن مسلم . واحد منّا ، وعليك أن تفتح عينيك إذا شئت ألّا يفتك بك سكان الأنقاض وأنت نائم على قفاك! هه ـ هه ـ هه . . » .

نظر إليه كونسا باشمئزاز فتوقف الفلاح عن ضحكته البلهاء . استمروا فى البحث حتى نزل الظلام . فى ذلك الوقت كان الماء قد قطع مرحلة جديدة فى رحلته حول خاصرة الواحة .

عبروا الغابة طولاً وعرضاً قبل أن يجدوا من قال لهم أنه رآها فى أحراش الديس غرب عين الكرمة مساء الأمس . أضاف الفلاح ـ وكان مخموراً تفوح منه رائحة كريهة حسبها كونسا رائحة روث الحمير فى البداية ـ أنه رآها تترنح وتتقيأ مما يدل على أنها استولت فى نخلة مّـا على قلة لاقبى ! ثم غمز الفلاح بعينه وقال بصوت مكتوم وهو ينفض الغبار والطين عن كفيه المتشققتين : «من حقنا أن نفخر باختراعنا ما دام أصبح يروق حتى للنصارى !» ثم كتم ضحكة وبصق خلف منكبه وأشار لكونسا للمكان الذى رآها فيه .

هناك تحت شجرة نخيل صغيرة ، عثروا على آثار القىء .

بحثوا عن آثار تدل على وجهتها فلم يعثروا على شىء . اختفت الآثار تحت دبيب الحشرات الليلية وحوافر الدواب وأقدام الفلاحين .

أثناء البحث أدركوا أن الأرض الندية تزحف حثيثاً وتلتهم المساحات تلو المساحات فانفض الفلاحون عن كونسا بالتدريج وذهبوا للملمة متاعهم والاستعداد للهجرة حتى وجد نفسه وحيداً فى نهاية المطاف . قال فى نفسه وهو يلهث ويمسح العرق المتدفق على جسده أن قدمها ربما زلت وسقطت فى الوحل المتوحش خاصة إذا لعب اللاقبى اللعين برأسها كما يؤكد ذلك الفلاح . انتفض قلبه وكاد يقفز من جنبه وهو يتخيل ماريا تغيب فى الوحل الرجراج ، يشل الخمر لسانها فتعجز حتى عن الصياح وطلب النجدة . أحس نحوها باشفاق لم يسبق أن أحسه تجاهها ، وأحبّها فى تلك اللحظة كما لم يحبها طوال حياتهما معاً . ابتسم رغم المحنة وهو يسمع الفلاح الأخير يهمس فى أذن زميله ويتراجع إلى الخلف خطوات ليفسح لهم الطريق: «.. قل لصاحبك الرقريقى أننا نعجز فى معاندة امرأة واحدة فكيف سيكون حاله وهو يعانى امرأتين مرة واحدة !» . تعب من الجرى وأحسّ بالعطش . قرر أن يعود إلى عين الكرمة ليشرب ويغسل أطرافه ويلتقط أنفاسه قليلاً كى يواصل البحث على ضوء القمر .

زحفت العتمة ولكن بهرة القمر تأخرت عن موعدها مع قمم جبال الرملة الشرقية .

شرب وبدأ يغتسل . غمر وجهه بالماء وأصغى لصوت الماء الآخر : ماء النبع .

صوت خفى ، رهيب ، يعد ، بلغته الغامضة ، ويتوعد بتهديد مكتوم .

خيّل له أنه يسمع خرير المياه وهى تحفر تحت الأرض وتنساب عبر تجاويف السبخة وفراغات الملح .

حبس أنفاسه وأصغى : هدير المياه الفوقى والسفلى يختلط بالصمت وصياح الجنادب فيتكوّن نغم غامض يشير إلى الحقيقة ويكاد يبوح بسر الحياة .

فى العتمة ، فوق مياه العين الهادئة ، عند الفتحة المسدودة بالليف وخرق القماش التى تنطلق منها المياه إلى الجداول ، رأى رجلها منصوبة إلى أعلى ،

طافية فوق الماء الساكن . كان نصف ماريا العلوى عالقاً بتجويف العين ، عند الفتحة ، الذى منعه من أن يطفو فوق سطح الماء .

لم يستطع كونسا أن يخلّصها من الكمين إلا بعد أن فتح السدادة ونزع أكوام الخرق والليف وقطع القماش الممزقة فاندفعت المياه عبر الساقية إلى الجدول وجرفت فى طريقها جسد المرأة المنفوش .

عرف على الفور أن زمناً طويلاً قد مضى وهى على هذه الحال .

لم يكن كونسا يعلم ، حتى تلك اللحظة ، أن السد الترابى الذى يحمى عين الكرمة من الطرف الجنوبى الشرقى قد بدأ يتداعى وينهار فاندفع ماء العين فى ماء النبع ليكونا معاً بحيرة كبيرة من الوحل والطين والملح .

(14)

لم ينخفض مستوى الماء واستمرّ الشلّال العنيف يتدفق ويحفر حول خصر الواحة .

يئس الجاروف من تلقى رد الحكومة فى عاصمة الولاية فأعلن عجزه ودعا الأهالى إلى إخلاء البيوت وهجر الرقعة المهددة . ولكن نداءه جاء متأخراً لأن السنة الوحل بدأت تقتحم عليهم الديار .

قال الجاروف غاضباً وهو فى طريق عودته من المركز يصاحبه الزبرجدانى والساطور :

ـ فليهنأ بال غوما الآن . لقد حقق ما أراد ودفن آدرار وقفز إلى الرملة ! منذ دخل الواحة لم نر خيراً ولم نحصد سوى الكوارث والمصائب . نبهتكم منذ البداية إلى أن قصة النبع هذه لن تنتهى على خير ولكنكم أرجعتم موقفى إلى عداء مزعوم بينى وبينه . لم أعاده قط والله على ما أقول شهيد.

مسح العرق على جبينه ودحرج حجراً بنعله واستمر :

ـ العداء كان من جانبه فقط . وها هو ينفذ نواياه العدوانية ضدّى وضد آدرار

فيغرق الواحة فى الطوفان وينكد على فرحتى بابنى البكر !

بصق على الأرض فعارضه القاضى :

ـ أتق اللّه يا رجل ! لا دخل لغوما بما حدث . الرجل ليس مسئولاً عن تفجير غطاء الفوهة .

ـ ليس مسئولاً عن تكسير الغطاء ولكنه مسئول عن خرق غشاء الأرض فاستفزت وألقت بمخزونها من الغضب على رؤوسنا . الأرض تنوى الانتقام . . . كم معك من الحمير يا سى مختار ؟

فوجىء الإمام بالسؤال فرفع نحوه نظرة حائرة وهو يتقدم خطوات ويسير بمحاذاته .

عاد الجاروف يلقى بالسؤال :

ـ أقصد كم معك من الحمير لحمل الأثقال؟ هل تستطيع أن تعيرنى حماراً أو إثنين ؟

تمتم الساطور بتردد :

ـ لا أظن . أمتعتى كثيرة والوليّة كل ساعة تأتينى بصرة جديدة من المخزن وتؤكد على أهميتها . أكوام الأمتعة ترتفع فى ساحة البيت كتلال الرملة .

ـ لو رأيت أكوام الأمتعة فى بيتى . لدى قافلة من الحمير ولكنها لن تكفى . ما يحيرنى كيف ومتى تتجمع كل هذه الحاجيات والأشياء .

تدخل الزبرجدانى :

ـ هذه مساوىء الاستقرار فى مكان واحد . كلما بقيت مدة أطول كلما تكومت حولك الأشياء العديمة النفع . ومع الوقت يمكن لهذه الأشياء أن تنهار على رأسك فتكتم أنفاسك . هىء ـ هىء . . .

حدجه الجاروف بنظرة صارمة ولكن القاضى لم يتوقف .

ـ . . ولذلك ينصح الصوفيون بوجوب الترحال والتنقل دائماً للتحرر من قبضة الأشياء.

ظل الجاروف يرمقه بفضول في حين أضاف الزبرجداني بلغته التي لا تناسب الموقف :

ـ الخلاص من الأشياء . يا له من حلم !

اقتربوا من ساحة السوق فقام الجاروف بمحاولة لتغيير الموضوع . قال :

ـ أفهم من هذا أن أمتعتك أقل يا سي صالح . أعرني حماراً أو إثنين باللّه !

الزبرجداني استمر بنفسي بنفس اللغة الغامضة متجاهلاً طلب الشيخ :

ـ أنظروا إلى الشيخ غوما . في ذلك العام عندما حل وباء العقارب كفّر عن خطاياه وخطايا أهله بحرق الممتلكات والأكواخ وخرج إلى سفح الرملة بيدين عاريتين فكافأه اللّه بالنجاة من الطوفان .

تمتم الجاروف :

ـ أنت تخرّف يا سي صالح . . .

ـ الخلاص من الأشياء والتجرد من الممتلكات نعمة تعلمها من الصوفيين . أو ربما من الصحراء . . الله أعلم . .

ـ أنت تهذي. ربنا يشفيك .

ـ ثمة أشياء كثيرة كان يمكن أن نتعلمها من شيوخ الطرق الصوفية ، ومن الصحراء . .

ـ سبحان اللّه . . .

ردد الساطور أيضاً :

ـ سبحان الله . . .

قال الزبرجداني بنفس اللغة الغامضة :

ـ ولكننا ضيعنا حياتنا يا شيخ عبد الجليل . ولم نتعلم شيئاً . . . الصحراء معلّم حكيم لم نستمع إليه طول حياتنا ، لأننا كنا مشغولين بتنفيذ أوامر النفس التى لا تأمر إلا بالسوء . . .

تمتم الجاروف وهم يتفرقون فى الساحة ويهرعون لحزم أمتعتهم استعداداً للرحيل :

ـ ربنا يشفيك يا سى صالح . كنت عاقلاً حتى وقت قريب !

أسرع الجاروف يصعد المرتفع نحو بيته فسمع الزبرجدانى يهتف خلفه بصوت مزعج :

ـ الانسان يمسك بذيل الحقيقة دائماً بعد أن يكون الأوان قد فات . . .

القاضى كان على حق . لأنه الوحيد بينهم الذى أحسّ بالخطر وأعلن عن شكّه فى الخلاص بصوت مسموع . إذ لم تكتب لهم النجاة . . ولم يلتقوا بعد ذلك أبداً !

(15)

أصبح غوما يتحايل على الأرق بالأصغاء لصوت الشلاّل أو تفقد المساحات الجديدة التى استولى عليها الماء مستعيناً بعصاة الرمان .

ارتوت الأرض وطفح الطين وارتفع مستوى الماء . فى بعض المناطق غمر الأحراش وتطاول وتسلق النخيل بضعة أشبار . أما الجدال والمزروعات فغابت واختفت فى بحيرات الماء المعتم الذى تطفح فوقه أعشاش الحمام وأعراف النخيل ويشهد مسابقات الضفادع المتقافزة فى مرح .

عاد الشيخ من جولته التفقدية لشاطىء البحر وجلس فوق المرتفع يصغى لصوت الشلال العنيف الذى غيّر لهجته الآن ، بعد ارتفاع منسوب المياه ، وأصبح يتحدث لغة أخرى لا تقل غموضاً . لغة تتمتم بسرّ الوجود وتفصح عنه جهاراً . لغة منابع الماء دائماً حكيمة .

طلع القمر فازدادت اللغة عمقاً ودلالة . أصغى فى خشوع وهو متقرفص فى مواجهة مشروع الضوء الذى طرحه القمر الطالع . تذكر المحاكمة التى أجراها البارحة لمبروك دبّار . كان يريدها أن تكون محاكمة تهديه إلى السبب الذى جعله يعود إلى آدرار بعد أن فعل بها ما فعل ونهب ما نهب من أموال فوجد أن الأمر يتخذ منعطفاً آخر لم يقرأ حسابه . أمر بحل وثاقه فاعتدل دبار فى جلسته ومسح فقاعات الزبد المنتشرة حول شفتيه وتعلق بغوما فى نظرة طويلة قبل أن ينهار باكياً ويطلب الرحمة . قال وهو يشهق كالطفل ويمسح دموعه بطرف جلبابه المتسخ ببقع الزيت ولعاب التبغ ، أنه اضطر لجمع المال ليس حبًّا فى المال وإنما كى يحرر زوجته من عصمة أحد التجّار فى واحات الشمال بعد أن خسرها فى لعبة قمار منذ ما يزيد على العشرين عاماً . فوجىء الشيخ فتبادل النظرات مع الشيخين خليل وآهر . كان آيس يجلس فى الزاوية يقلّب كتبه وكرارينسه مبتسماً فنهره آهر فزحف على يديه وركبتيه خارجاً من الكوخ وهو يكتم ضحكة كادت تفلت رغماً عنه .

استمر مبروك دبّار يسرد قصته فأضاف أن التاجر عقد عليها وضمّها إلى حريمه المكوّن من ثلاث زوجات استولى على اثنين منهن من مراهنات القمار أيضاً وعجز أزواجهن عن استردادهن بسبب الشروط المالية التعجيزية التى يضعها هذا التاجر الجشع . وقد استغل حبه لزوجته وحداثة زواجه منها فاشترط مبلغاً باهظاً ؛ طلب مائة ليرة ذهبية مقابل أن يردّها له فعقد العزم على استردادها وهام على وجهه فى الصحراء فعمل راعياً ، ثم مرافقاً لقوافل التجار إلى أواسط القارة ولكن جمع المائة ليرة كان أمراً صعباً اللهم إلا إذا عثر المرء على كنز . وقد حاول أن يجرب حظه فى الكنوز خمس سنوات ولكنه لم يعثر على قطعة واحدة فقرر أن يلجأ إلى الحيلة والتحايل فارتدى أسمال الفقهاء واحترف كتابة الأحجبة ومعالجة الممسوسين بواسطة الكوى بالنار . واعترف هنا أنه اتخذ هذه الحرفة مصدراً للرزق بسبب ملاءمتها لإنسان مثله يجهل أسرار التنجيم فخشى أن يتطاول على السحر ويدّعى ما لا علم له به فيكسر الجان رقبته أو يفضح أمره فى أحسن الأحوال . قال : « .. رأيت أن الكوى بالنار يدر ربحاً ويبعدنى عن المواقف الخطرة التى تتطلب مصارعة سكان

عاد مبروك دبّار يلح : «أنا بانتظار العقاب يا شيخ غوما.» شعر غوما بالضيق فنهض باشمئزاز وأشار لآهر أن يتبعه . قال له خارج الكوخ : «إياك أن تتركه يذهب . سيغرق فى الوحل . الصدمة طيرت رأسه ولا يفكر الآن بعقل سوى!» وخرج لتفقد استعدادات الهجرة فى الأكواخ المجاورة .

لم يكد يبتعد خطوات حتى خرج دبار من الكوخ وصاح خلفه : «لا تنس يا شيخ غوما أنى بانتظار العقوبة . لن أتحرّك حتى أنال نصيبى من سوطك الشيطانى . لقد عملت ما يجعلنى استحق الجلد عن جدارة . أسرع بـاللّه . لدىّ مهمـة تنتظرنى . لن أسمح للصدفة العمياء ولا لنبعك الملعون أن يضيع ثروة جمعتها فى عشرين سنة. . .» .

كان يمشى خلفه ويلاحقه بالثرثرة المجنونة ، والشيخ آهر يحاول أن يهدىء ويعيده إلى الكوخ .

فى الليل جاءه الشيخ آهر وأخبره أن مبروك دبّار قد دبّر الهرب . استغفله وتسلل من الكوخ فى الظلمة . فى الصباح تتبعـوا أثره حتى بلغـوا الشاطىء الرجراج . هناك وجدوا آثار خطواته وهو يمشى يميناً نحو جبل الماء ثم يعود على أعقابه إلى الناحية المعاكسة ، ثم . . اختفت الخطوات عند بالوعة الوحل التى يطفح عليها الماء آلاسن وزبد الملح .

(16)

لم يضعف تدفق الماء من النافورة الخرافية .

لم يكتشف الأهالى أنهم محاصرون فى جزيرة معزولة إلا بعد أن جاءتهم أخبار غرق الشاحنة القادمة من الشمال . سارع فريق منهم وقام بمحاولة فدائية للعبور فى الجزء الشرقى الغربى من الغابة ففقدوا حميرهم فى العملية .

تصاعد الهوس .

انهارت فراغات بجوار المقبرة فطلع لسان مائى طينى كالأفعى وشق الجزيرة إلى شطرين .

لم يبق أمام الأهالى الآن إلّا أن يتشبثوا بالجبل. تسلقوه من الجهات الأربع وانتشروا فوقه من قمة الرأس حتى أسفل الحذاء .

ضجيج النساء وصراخ الأطفال يحجب الآن هدير الماء الذى استمر يغذى الأنفاق والفراغات تحت الأرض.

أدرك الأهالى أخيراً أن آدرار تقوم على سراديب من السبخة .

طوال الليل ظلت أضواء المشاعل تبرق وتتلامع حول الجبل الذى أصبح المعقل الأخير .

الضجيج أيضاً لم يهدأ.

راقب الشيخ غوما هذه القيامة حتى منتصف الليل . جاءه آهر وخليل وجلسا قبالته على الربوة . آهر يحمل طبقاً استقر فوقه وعاء ملىء بالشاى وثلاثة كؤوس . أبصر فى العتمة قطع من الكعك أيضاً . وزّع الشاى على الكؤوس الثلاث فقال خليل :

ـ إذن هى الهجرة مرّة أخرى يا شيخ غوما؟

تناول كأس الشاى فلاحظ أنه بدون رغوة . قال فى نفسه أن الشاى أعدّ من يدى امرأة . النساء فقط تجهل التفنن فى صنع الرغوة . رشف الشاى فأحس بطعم عطر الـ «باريسيان» . العطر أفسد طعم الشاى وقضى على الرغوة . تباطأ فى الاجابة على تساؤل خليل فقال آهر :

ـ فى الصحراء طردنا الجفاف ونضوب الماء فى البئر ، وفى الواحة طردنا الفيضان وغزارة الماء . أليس هذا غريباً ؟

وضع غوما الكأس على الأرض وقال وهو يراقب الأضواء المتلامعة فى السهل :

ـ لا أرى أي غرابة . الإنسان مطارد ما دام حيًّا . مطارد من الجفاف أو من الفيضان . فى الحمادة الحمراء كنّا نعيش سنوات ونحن نركع لله فى صلوات الاستسقاء نشكو القحط والجفاف ونطلب الماء وعندما يحن قلبه وتأتينا السيول من

رؤوس الجبال تجرف المواشى والدواب بل وبعض الأرواح أحياناً حتى أن بعض المتطرفين وضعاف النفوس يرون فى السيل نقمة ولعنة .

انحنى فوق الرملة ومسح الأرض ممهداً لوضع خريطة لبناء مدنه الغامضة ولكنه لم يستطع أن يتبين الخطوط بسبب الظلمة . أضاف :

ـ أما أنا فأعامل الأمر كما يعامله ذلك الذئب الحكيم فى الأسطورة الذى يملأ الوادى بالقهقهات والضحكات عندما يجوع لأنه يعلم أنه ليس بعد الجوع إلا الشبع . وعندما يحصل على نصيبه ويشبع يملأ الوادى عواء وعويلاً لأنه يعرف أن الشبع يعقبه أشرس أنواع الجوع . أريد أن أقول أن الينابيع إذا جفت فأبحث خلف السراب عن مفاجأة . الصحراء دائماً تخبىء مفاجأة فى مكان ما . ستجد بئراً وربما بحيرة .

صمت ثم مدّ يده ورشف من كأس الشاى الردىء على مضض . رائحة العطر فى الشاى تثير الغثيان ولكنه اضطر أن يشرب مجاملة لآهر.

عاد يقول :

ـ ولكن المفاجأة الأخرى هنا . إذ يروق للصحراء أن تداعبك قليلاً فتغدق عليك بالماء وتسوق فى طريقك بئراً وتتلف الحبل أو الدلو أو كلاهما معاً . هل تذكران قصة الراعى الذى اهتدى إلى البئر بعد أن تجرد من ملابسه فى الطريق . لقد واجه خياراً صعباً . أما أن يموت عطشاً وهو يتفرج على الماء تحت قدميه أو أن يرمى بنفسه إلى البئر ويموت غرقاً . وقد نفذ صبره وطير العطش عقله فقفز فى الماء وشرب ومات غرقاً بالماء وربما كتبت له النجاة لو انتظر قليلاً لأن قافلة مرت على البئر بعد انتحاره بساعات .

صب له آهر كأساً آخر فغافله ودلق الكأس فى الرمل وأهال عليه التراب ثم أضاف منهيًا قصته :

ـ أمرنا لا يختلف كثيراً . جئنا إلى آدرار هرباً من العطش ونغادرها هرباً من الماء . بجوار أطلانطس كنا مهددين بالموت بسبب انعدام الماء وفى الواحة مهددين

بالهلاك غرقاً فى الفيضان المدرار . فأى غرابة فى هذا ؟

حاول أن يتبيّن خطوطه فى العتمة ثم مسحها عن وجه الأرض بحركة مباغتة ورفع رأسه قائلاً .

ـ هذا يمكن أن يكون مفاجأة للغافلين فقط . للغافلين من أبناء الواحات الذين يجهلون لغة الصحراء ولا يعرفون أن طبيعتها لا تختلف عن الحياة . إنها الحياة . .

علق خليل :

ـ معك حق . الحكمة تقول : لا تحط رمالك فى الوادى إذا شئت ألا يجرفك السيل .

ساهم آهر لأول مرة :

ـ لا بد أن تكون مستنفراً دائماً إذا أردت النجاة .

أيده غوما :

ـ نعم . الاستنفار . هذا ما أردت أن أقول : إذا استرخيت واستسلمت للراحة غافلتك السماء ـ كما فى الحمادة .

ـ وضربتك بالسيل وأنت نائم فى السهل . انظروا إلى هذه القيامة .. إنهم مشدودون إلى الغابة ، إلى الأرض . . . إلى بيوت الطين ، إلى الأشياء . أنهم عبيد إلى أشياء صنعوها بأيديهم ثم نسوا أنفسهم وشرعوا يعبدونها مسمين ذلك استقراراً . العبودية فى الاستقرار . فى جمع المال ومقتنيات الدنيا .

سارع آهر :

ـ والحرية فى التنقل .. فى الترحال . أليس هذا ما أردت أن تقول ؟

مضى غوما متجاهلاً تساؤ ل آهر :

ـ اللهم أقنا شرّ المال ومقتنيات الدنيا!

تدخل خليل :

ـ أليس هذا ما يسميه العامة : الزهد؟

احتج غوما :

ـ البلهاء وليس العامة. البلهاء يرون أن هذا زهد وتصوّف ، وأراه أنا خلاصاً وحرية !

صمتوا فوعد الأفق بمطلع القمر . تأخر طلوع القمر .

اصغى غوما لهوس الأهالى عند أقدام الجبل وراقب المشاعل المتنقلة وهى تومض وتختفى فى الظلام .

أحس بألم يوخز قلبه عندما تذكر مهمدو . . و. . صرح نخلته الهيفاء المنكفئة برأسها المقطوع نحو القبلة كأنها تصلى لشروق الشمس كل يوم .

ردد بنبرة حزينة غائبة :

ـ اللّهم أجرنا من شرّ المال ومقتنيات الدنيا !

(17)

. . هلكت آدرار .

طار الخبر على جناح الريح ووصل عاصمة الولاية . طرق أبواب الوالى ودخل قبل أن يؤذن له . كان الوالى يعقد اجتماعه الأسبوعى فالتفت إلى رئيس المجلس التنفيذى وتساءل :

ـ تقول آدرار ؟ أليست هذه هى الواحة التى أتخذها المجاهد غوما مقرّاً له ، لقد نزلنا عند رغبته وأنفقنا أموالاً طائلة لنحفر بئراً لقبيلته . لم أكن أعلم أنه يسعى لأن يحفر قبره بيديه . الدجاجة انتشلت من التبن السكين التى كانت سبباً فى ذبحها . رحمه اللّه . قمنا بواجبنا على كل حال. لم نقصّر فى شيء .

ثم أنسلّ الخبر خارجاً وتسلل عبر اللاسلكى حتى طرق أبواب رئيس الحكومة

لعبور الصحراء الرملية ، لما صدّق أحد أن هذه الواحة وجدت فوق الأرض يوماً ما .

موسكو بين أبريل ومايو 1988م

* * *

(الرواية الرابعة «العودة إلى القوقعة»)

هوامش المؤلف

(1) المملكة الليبية المتحدة : الاسم الرسمى لليبيا قبل عام 1964 م عندما ألغى نظام الولايات الثلاث : طرابلس وبرقة وفزان وأصبح يطلق على ليبيا «المملكة الليبية» .

(2) القوات المتحركة : الجهاز البوليسى المتخصص فى قمع الانتفاضات والمظاهرات وحماية النظام .

(3) الرقريقى : الأغريقى .

(*) تقول الخرافات الشعبية أن القدم هو العضو الوحيد الذى يعجز الجن عن تقليده والتشبه به .

(4) الشاطىء الرابع : مصطلح رومانى قديم أطلقه الرومان على الشواطىء الليبية عند غزوهم لها على تخوم العصر الميلادى . وقد ردده الطليان فى بداية القرن لتبرير غزوهم لليبيا .

(5) الهجانة : فرق قتالية صحراوية تعتمد فى تنقلها على المهارى والجمال استعان بها الطليان لعبور الصحراء والتغلب على المناطق الصعبة فى الدواخل .